**نزف النخيل**

**قصة حياة ميثم التمار**

**مسلم ناصري**

|  |
| --- |
| **الكاتب: مسلم ناصري** |
| **ناشر النسخة الأصلية: دار جمكران للنشر** |
| **رسوم: محمد صادق** |
| **ترجمة: أحمد عودة** |
| **تدقيق الترجمة: حوراء سجادي** |
| **إعداد النسخة العربية: مركز المعارف للترجمة** |
| **الناشر: دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة** |
| **إخراج فني: علي عليق** |
| **الطبعة الأولى - 2021م** |
| **ISBN 978-614-467-244-0** |
| **books@almaaref.org.lb**  **00961 01 467 547**  **00961 76 960 347** |

**نزف النخيل**

**قصة حياة ميثم التمار**

**مسلم ناصري**

**المحتويات**

[**المشهد الأول 11**](#_Toc74054934)

[**المشهد الثاني 23**](#_Toc74054935)

[**المشهد الثالث 31**](#_Toc74054936)

[**المشهد الرابع 43**](#_Toc74054937)

[**المشهد الخامس 53**](#_Toc74054938)

[**المشهد السادس 69**](#_Toc74054939)

[**المشهد السابع 83**](#_Toc74054940)

[**المشهد الثامن 97**](#_Toc74054941)

[**المشهد التاسع 115**](#_Toc74054942)

[**المشهد العاشر 127**](#_Toc74054943)

[**المشهد الحادي عشر 139**](#_Toc74054944)

[**المشهد الثاني عشر 151**](#_Toc74054945)

[**المشهد الثالث عشر 159**](#_Toc74054946)

[**المشهد الرابع عشر 169**](#_Toc74054947)

[**المشهد الخامس عشر 193**](#_Toc74054948)

[**المشهد السادس عشر 203**](#_Toc74054949)

[**المشهد السابع عشر 217**](#_Toc74054950)

[**المشهد الثامن عشر 235**](#_Toc74054951)

»**كان ميثم عبدًا لامرأة من بني أسد، فاشتراه الإمام علي (عليه السلام) منها وأعتقه«**

**لكنه صار أسير ولاية علي**

**وأسير محبته وعشقه.**

ابن حجر العسقلاني؛ شرح نهج البلاغة؛ ابن ابي الحديد، ص 292.

رجال الكشي؛ ص 86.

# **إشارة**

كلّما تعاظمَ الكمالُ عجزَ البيان عن وصفه، لكن ضرورة الاستفادة من الشمس، تستوجب الاقتباس من مرايا شعاعها.   
هكذا هو مداد الرواة عن أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام)، فحين تعظم الغاية في معرفة ثراء وجوده، يستلهمُ طلاب الحقيقة تجلياتِها العلويّة في كلّ من اقترب وعشق وعرف.

هذا الكتاب يسردُ محطات من حياة «ميثم التمار» الصاحبِ المخلصِ الذي اقترب من مولاه فعشق وعرف. قاده القدر إلى بلاد المسلمين. نشأ مُحبًّا للخير، وكبر مُريدًا للعدالة. أدرك الكمال منجذبًا إلى هالة الأنس، وصار محلًّا للثقة. بذل كلامه وأفنى عمره في نصرةِ عليّ. جُرح وصُلب نازفًا على النخيل...

لنقرأ قصّة «ميثم» حكايةَ العشق وروايةَ طلبِ الحق. ومن قصد فيوضات النور تأملَ المصابيح.

نشكر كلّ من ساهم في إعداد الكتاب وترجمته وتحريره لا سيّما الأستاذ أحمد عودة في الترجمة، السيدة حوراء سجادي في تدقيق الترجمة، السيدة نجوى الموسوي في التحرير والتقديم، الأستاذ فيصل الأشمر في التدقيق اللغوي، والمصمّم

الفني الأخ علي عليق. كما ونشكر جزيل الشكر الكاتب سعيد محمدي والرسام محمد صادق؛ ولا ننسى معدّ وناشر النسخة الأصلية: انتشارات جمكران (دار جمكران للنشر)، وناشر النسخة العربية في بيروت: دار المعارف الإسلامية الثقافية.

تنويه: عنوان الكتاب الأصلي: باغ طوطي (روضة الببغاء)، وقد ارتأينا وضع عنوان آخر له، نزف النخيل.

**مركز المعارف للترجمة**

**تشرين الثاني/ 2020م**

# **1**

كانت النياق تنظر بعيونها الواسعة إلى أولئك المقيدين بالسلاسل، تحدّق بهم وهي تجرّ أفواهها على الأرض بين القمامة، وصوت السلاسل الملتفّة حول أقدام الرجال تملأ الفضاء المختنق، في ذلك الصباح الخريفي المشبع بضباب المستنقع.

كان الأسرى يجرون أرجلهم على الأرض وهم مثقلون ومتعبون، يعبرون من بين الإبل ونظراتها الحريصة، فيما أقدامهم تغوص في المستنقع حتى الرسغ، وهم يُقادون خلف المحاربين المنقّبين، يسيرون نحو تلك الخيام الواقعة خلف المستنقع، من دون الالتفات إلى أعواد القصب اليابسة المنتصبة الحادّة.

كانت سيوف المحاربين المنحنية تلمع، وهم تارة يقهقهون، وتارة أخرى يتكلمون بلغة لم يفهم الأسرى منها شيئًا، سوى كلمة واحدة، كان الرجال يكرّرونها بازدراء؛ مجوس... مجوس...

بدت وجوه الأسرى مقطبة وشاحبة، وأبدانهم مرهقة، وهم يتقدمون بخطوات ثقيلة؛ فطول الطريق أنهك قواهم، ما أجبرهم على السير ببطء شديد. لقد غارت عيونهم من شدة التعب، وغضِنَت جباههم حتى ارتسمت عليها الخطوط، أما لحاهم الكثيفة فصارت شعثاء غبراء.

من بين الأسرى كان فتىً ذو شعر طويل أسود يميل إلى الزرقة، لم يكد يُرى من بين الرجال الغلاظ وهو يسير، وقد اعتراه خوف شديد. كانت عيناه مسمّرتين على شفرة سيف الحارس وهو يراقبه بشدة. لم يعد في ركبتيه قوة تحمله على المشي، فمسير أيام وليال عديدة ومتواصلة أفقدته القدرة والحول؛ لكنه ظلّ يجهد نفسه على السّير حتى لا يتأخر عن القافلة. فإذا حدث

وتحركت قدمه ببطء خطوة واحدة، فإن الأسير الذي يتقدمه سيسحب السلسلة التي تقيد معصميه، مما يدمي جراحه أكثر فأكثر. تلك السلسلة حول معصميه أشبه ما تكون بالمنشار، إذا تحركت احتكّت بجلده، ومزّقت لحمه، وضغطت على عظامه، فيتسلّل الألم إلى فقرات ظهره، وتجري الدموع على وجنتيه من شدة الألم.

عندما خرجوا من أوحال المستنقع، طلب منهم فارس من الأعداء أن يتوجهوا نحو كثبان من الرمال، كانت مليئة بحصى ناعمة مدوّرة وحمراء، وتكاد ظلال شجرات النخل المنتصبة في الطرف الآخر من المستنقع أن تصل إليها. هناك تحلّق الأسرى حول تلة الرمال. ارتمى بعضهم على الأرض، وعلت الآهات والأنّات. ثم راحت تعلو أصوات الهمس بين من هم أفضل حالًا. لم يكن أحدٌ يعلم أيّ مصير ينتظرهم؛ أيقتلون أم يسجنون! لكن حديث الرجال جعل الفتى يرتعد من شدّة الخوف.

- يريدون أن يسلخوا جلودنا مثل الحرباء.

- فليرحمنا الرب.

كانت النظرات متوجهة نحو شفرات السيوف. أما الجنود فراحوا يخمدون صراخ الأسرى وعويلهم.

- نحن لم نرتكب أي ذنب، كنا أناسًا مساكين نعمل ليل نهار.

- لسنا أسارى في ميدان المعركة.

- في النهاية نحن عبيد.

-

لم يجلبونا من ناحية النهروان إلى هنا عبثًا، لو أرادوا قتلنا لقتلونا هناك.

طلب الجندي البدين الواقف تحت ظل نخلة، بغضب، من الأسرى أن يسكتوا؛ لكن أحدًا منهم لم يفهم شيئًا من كلامه.

- لقد جلبونا ليعلقونا فوق المشانق، حتى يرى ذلك نساؤهم وأطفالهم.

- أما أنا فأفضّل أن تقطع عنقي بحدّ السيف، على أن أشنق وأتململ فوق المشنقة.

صوت غليظ يصدره الحارس فيسكت الجميع.

كان الفتى يرمي بطرف عينيه ظل الحارس، وهو يرتعد، وقد خُطف لونه من شدة الخوف، بينما رأس السيف المعلق برقبة الحارس يميل ويستقيم مع كل حركة يأتي بها، ويلمع مثل المرآة تحت أشعة الشمس.

في الجهة المقابلة كان صوت ضجيج النساء والأطفال يعلو، لقد خرجوا من خيامهم ووقفوا يشاهدون ما يحدث... نساء ورجال عجزة يرتدون أثوابًا طويلة بيضاء وسوداء. راح الجنود يزجرون الأطفال فيبتعدون، لم يكن عددهم كبيرًا. كان أكثرهم من الفتيات الصغيرات النحيلات.

عندما علت أصوات الأولاد وضحكاتهم، شعر الفتى برغبة عارمة في اللعب معهم، لكنه لم يكن يمتلك الشجاعة على رفع رأسه والنظر إليهم. في تلك اللحظات أحس بشوق شديد يأخذه، تراءت له صورة أمه وهي واقفة عند عتبة الباب تنتظره

بصمت، كما كانت تفعل كل مرة! ذكرى جعلت دموعه تسيل على خدّيه. أين أمه الآن؟ ماذا حلّ بأبيه؟ لم يعلم أحد كيف تجاوز الجنود أسوار المدينة ودخلوها. حدث ذلك في منتصف النهار. سقطت النهروان في يد فرسان من العرب كانوا يرتدون اللباس الأبيض. الجنود الملثمون يشاهدون في كل مكان؛ في الأسواق والأزقة. اضطربت المدينة دفعة واحدة، واختلّ أمنها، وانتشرت فيها رائحة الدماء والدخان، وأخذتها النيران. كان والده قد طلب إليه أن يعود إلى البيت ليحفظ حياته وحياة أمه. تحرك نحو المنزل مبتعدًا عن سوق التّمر وهو خائف، لكنه في الطريق وقع في يد عدد من الجنود، سدّوا عليه الطريق، وأقفلوا الزقاق من الجهتين. ما هي إلا لحظات، حتى سمع صوت الوهق يدور ثم يلتف مقيدًا كتفيه بإحكام. فجأة رأى نفسه ممددًا على الأرض. راح الفتى يصرخ ويفحص بيديه ورجليه، غير أنه لم يجد أحدًا ليساعده؛ لا والده ولا غيره. ابتلع الفتى ريقه، ومسح أنفه بكمّ يده الموحلة. كانت تتراءى له أمه من خلف غشاء دموعه، وهي تنتظره أمام الباب... ماذا حلّ بأبيه؟ أحيُّ هو أم قتل؟ إن كان حيًا فأين هو الآن؟ لماذا لم يصبح أسيرًا مثله؟ ما زالت صورة أبيه مطبوعة في ذهنه، بتلك اللحية الكثيفة، والجبهة العالية، وهو ينقل سلال التمر من مكان إلى مكان، ويناديه بصوت رخيم حنون، يطلب إليه أن يساعده في ترتيب السلال. لقد سمع من أحدهم أن والده شوهد جريحًا قرب حائط دكانه. حرّك شفتيه ببطء وهمس قائلًا: «أبي».

عاد إلى نفسه مع صوت رقيق. رفع رأسه، رأى امرأة طويلة القامة تقف في مقابله؛ امرأة سمراء تجرّ أذيال ثوبها على الأرض، عيناها السوداوان تشبهان إلى حد بعيد عينَي «فرنگيس» زوجة جارهم. أدار الفتى رأسه بانزعاج، لكن الجندي أخذ بذقنه ورفع رأسه نحو الأعلى، حتى تتمكن المرأة من رؤيته بصورة أفضل. خلف المرأة كانت تقف بنت صغيرة، شعثاء، رمداء، وهي تحدق به.

«هذا الولد جيد لك، ماجدة! سيقوم بأعمالك المنزلية ويساعدك في أشغالك، ريثما يأتيك خبر عن زوجك. لن يكلفك دنانير كثيرة».

وقع ظل المرأة على وجه الفتى. تقدمت خطوات إلى الأمام، وضعت يدها أسفل ذقنه، فأرجع الفتى رأسه إلى الخلف بانزعاج. تبسمت المرأة، ولم تنطق بكلمة واحدة، ثم راحت تحدّق بعينيه العسليتين. ما زالت جفون عينيه مبتلة بالدموع. انحنت قليلًا وأمسكت عضده، وبدأت تضغط عليها، كما يضغط على أسفل ظهر الخروف. كان والده يفعل ذلك عندما يريد أن يتفحص الخرفان، ليعرف إذا ما كانت مناسبة للذبح أم لا!.

عَبرت المرأة بجانب الفتى من غير أن تقول شيئًا، وراحت تنظر إلى الأسرى واحدًا تلو الآخر. ثم ذهبت وعادت بعد لحظات ووقفت في مقابل الفتى، التفتت إلى الحارس وقالت: «كلامك صواب يا سعد! يجب أن لا أفرط في مالي في أيام وحدتي هذه!».

نادى الحارس رجلًا كان يمسك بيده عظمة ناقة. تقدم الرجل البدين ببطء شديد، حدّثه الحارس بكلمات، فشرع الرجل البدين الأحول يخطّ برأس خنجره خطوطًا على عظمة الناقة التي كانت في يديه، ثم مال إلى الفتى يتأمله من رأسه إلى قدميه، بعد ذلك رفع رأسه ولم ينطق بكلمة واحدة. تقدم الحارس، انحنى وقطع حبلًا من الليف كان معقودًا حول معصمي الفتى، وفك السلسلة، ثم استدار بنصف وجهه نحو المرأة وقال لها: «ولدٌ هادئ! منذ انطلقنا من النهروان وأنا أراقبه، إنه كثير البكاء فقط».

- هل أمه وأبوه هنا؟

- لا أظنّ ذلك، إنه مثل الحَمَلِ الضائع، يبدو وحيدًا.

- إذًا، ليس ضيق صدره وبكاؤه عبثًا.

- على كل حال يمكنُكِ أن تكوني أمًّا له.

تجهم وجه المرأة، وسألت الحارس عن اسمه.

- الأسير ليس لديه اسم، ثُم إننا لا نفهم

لغة هؤلاء. من الأفضل أن تطلقي أنت عليه اسمًا.

ثم أشار إلى الفتى أن يذهب خلف المرأة.

في وسط ذلك الضجيج الذي أحدثه الذين جاؤوا ليشتروا خدمًا لأنفسهم، عَبَرَ الفتى من بين الرجال الأشداء المرعبين، وسار خلف المرأة؛ كأنه صار منسيًا. عندما ابتعدوا قليلًا عن ضجيج الناس، رجعت المرأة إليه وأمسكت بعضده، وبدأت تتفحصه من جديد، وتدور حوله، ثم طلبت إليه أن يسير خطوات عدة ويرجع، لكن الفتى لم يفهم كلمة مما قالت، وراح ينظر إليها بدهشة وتحيّر. تقدم الجندي والغضب بادٍ عليه، أمسك الفتى وجره بقوة، وقال له ما يجب أن يفعل. طلبت المرأة منه أن يرفع يديه عاليًا. أمسك الجندي يدي الفتى وشدهما نحو الأعلى، غير أن المرأة جلست على الأرض، وبدا الانزعاج على وجهها، عندما رأت معصميه الداميين، وقد بدا بياض عظمهما.

«سوف يتحسن بعد أيام عدّة، وقد يتحسن بسرعة إذا وضعت عليها مرهما...» قال الجندي.

مع مرور الوقت، كانت حرارة الشمس ترتفع أكثر فأكثر، وكان هدير الجمال ورائحة القمامة المنتشرة قرب المستنقع يملآن الفضاء. أما الذباب فراح يتنقّل مع البعوض فوق جراحات الأسرى. بعد أن تأملت المرأة الفتى جيدًا وتفحصته، راحت تخرج بعض الدنانير من كيسٍ بحوزتها، تعدّها واحدًا واحدًا وهي مترددة، ثم دفعتها إلى الجندي وقالت له: «إن كان

مريضًا فسوف أرجعه». بعد ذلك أمسكت بعضد الفتى، والتفتت إلى ابنتها وتابعت حديثها: «مائدة! أمسكي الحبل واجلبيه إلى الخيمة». قالت كلمتها ومضت تتقدم خطوة خطوة.

- انتبهي أثناء الليل فلا يهرب الفتى!

- إن أتى بحركة قطّعه الحارس إربًا إربا.

كانت الفتاة تمسك برأس الحبل المجدول من ليف النخيل بيدها، وهي تجرّ الفتى خلفها. عبروا من بين خيمتين، ومالوا نحو الجهة الأخرى للمستنقع. مشوا فوق روث الحيوانات المتجمّع خلف إحدى الخيام، ثم ساروا بجانب المستنقع حيث الأرض ضحلة وموحلة. بعد ذلك داروا حول شجرات النخل اليابسة، واجتازوا الخيام المنصوبة المبعثرة هنا وهناك.

شعر الفتى أنّ عيونًا تلاحقه، كانت تلمع من خلال شقوق أبواب الخيام وهي خائفة، وكأنها تنظر إلى ساق قدمه بحذر. ما إن ابتعدوا قليلًا عن الخيام، حتى خرج أصحاب تلك العيون من خيامهم ولحقوا بهم. وكان عدد من الصبية يلعبون تحت ظلال النخل، وقفوا يطاردونهم بأعينهم. تقدم صبيّ طويل القامة، ورمى الفتى بقبضة من الوحل كانت في يده، فأحنى الفتى رأسه نحو الأسفل، لكن الطين التصق برقبته؛ عندها ارتفعت ضحكات الأولاد، لكنهم ما لبثوا أن فروا جميعًا بصيحة واحدة من المرأة.

- ها ماجدة! لقد اشتريت عبدًا جيدًا. يبدو نشيطًا وقويًا مع صغره.

- أعتقد أنه سالم.

- اسمه سالم؟

- لا. لكن يمكن أن يكون اسمًا جيدًا له.

- هل يفهم لغتنا؟

- لا أعتقد، إنه مجوسي. لكن سوف أعلمه. لقد جاؤوا به من وراء الأنهار الغزيرة. ألا تريد أنت أن تشتريَ واحدًا؟

لم يجب الرجل المسنّ.

- قال سعد إنّه ولد مطيع.

- يستطيع أن يعينك في عملك حتى يأتيك خبر عن زوجك.

تأوّهت المرأة، وتابعت سيرها من دون أن تجيب. تقدمت نحو خيمة ظهر من خلفها كلب، أخذ يعوي كأنه يستقبلهم بنباحه. تمتمت المرأة بكلمات، فبدأ الكلب يدور حول ذلك الفتى الغريب ويشتمّ رائحته، ثم رجع إلى ظل الخيمة؛ صف يديه قليلًا إلى الأمام، وجلس على ذيله وهو يراقب الوافد الجديد، ثم بسط يديه إلى الأرض، ووضع رأسه بينهما متظاهرًا بالنوم. كان بين الحين والآخر يحاول طرد الذباب بفمه، وهو يغلق إحدى عينيه، بينما يراقب من تحت جفن عينه الأخرى ذلك الغريب الواقف خارج الخيمة تحت أشعة الشمس الحارقة.

# **2**

- ها ماجدة! أليس هناك من خبر عن وائل؟

استدارت المرأة بوجهها، لكنّه لم يكن يُرى تحت حمل القصب الجاف على رأسها: «كلا يا أختاه». غير أن جوابها ضاع بين أعواد القصب. مرّت من بين النسوة اللاتي كنّ يجمعن القصب حزمًا حزمًا، وتابعت سيرها خلف سالم وهو يحمل فوق كتفيه حُزمة من القصب ويمضي خلف ابنتها مائدة.

كانت الخطى بطيئة، سارت ماجدة وسالمة جنبًا إلى جنب، وقد تشابكت أعقاب حُزمتيهما. قالت ماجدة وهي تجيب سالمة التي كانت تسأل عن حال زوجها: «ليس بعد» ثُم تأوهت بشدة.

- قلبي مطمئن بأنه سوف يعود؛ الأرض التي ذهب إليها واسعة وبعيدة. إن شاء الله سيظهر. لكن الحمد لله أنك اشتريتِ هذا الفتى.

- إنه مسكين ومسالم. على كل حال فهو بمنزلة العصا في يدي في هذا الزمن الصعب.

تابعوا المسير وعبروا بجانب الخيم. على مسافة ليست ببعيدة، كان الرجال مشغولين بصفّ القصب يشبكونه ويجدلونه، ويعملون منه سقفًا وعرائش يستظلون بها؛ فالعيش

تحت الخيم السوداء في الطقس الحار والرطب يضيق الصدور ويخنق الأنفاس. منذ مدة والناس مشغولون بجمع أعواد القصب وصفّها ونسجها، وإقامة السقائف، لأنها ألطف هواء من الخيم. صحيح أن الأفاعي والعقارب تجد طريقها براحة أكبر إلى السقوف، لكن العيش تحت عرائش القصب أكثر راحة، وألطف هواء.

منذ أن وضع سالم قدميه في خيمة ماجدة، كانت الخيام تُزال واحدة تلو الأخرى، بينما تنتصب مكانها عرائش القصب. أما ماجدة فكانت تصبر لعل زوجها يعود. لكن وائلًا لم يكن بين الجنود الذين كانوا يعودون من المناطق البعيدة، ولم يكن لدى أحد خبر عنه، وهذا ما كان يقلق ماجدة. عندما يئست من الأمر صممت أن تنصب عريشًا من القصب مثل الآخرين، لكن بمساعدة سالم.

طرح سالم أعواد القصب التي كان يحملها فوق الحزم الأخرى، وتقدم نحو المرأة يساعدها على التخلص من الحمل الذي أحنى ظهرها، ثم اقترب من مائدة، أخذ الحزمة منها ورماها فوق كومة القصب اليابسة. تقدمت المرأة من ابنتها، وراحت تسحب أوراق القصب اليابسة والحادة من بين خصلات شعرها الطويل، بينما كان سالم ينفض قميصه الطويل العتيق، الذي خاطته له المرأة، وهو ينظر إلى حزم القصب ويبتسم.

اليوم تعبنا، لكن كان عملنا جيدًا. تعالا إلى داخل الخيمة لنأكل شيئًا.

أشارت المرأة إلى كأسين مليئتين بلبن الإبل، وهي تعقد رأس القربة. لم يكن سالم يحب لبن الإبل، فهو كثير الدسم، وطعمه يعقد اللسان. في الأيام الأولى كان لبن الإبل ينزلق في حلقومه بصعوبة؛ لكن المرأة كانت تجبره على تناوله. أما مائدة فقد شربت اللبن بشهية، وأدنت الكأس نحو أمها، تطلب اللبن مرة أخرى.

كان سالم ينظر إلى رأس أنفه الذي بدا له ظلًّا في بياض اللبن. مضت شهور على وضع سالم قدمه في خيمة المرأة؛ لكن مع كل الأحداث التي مضت، لم يبق الكثير في ذاكرته. صار يرى أمه مكان ماجدة. كان يتصور أحيانًا أن أمه تناديه؛ غير أن صوت ماجدة الرفيع، لم يكن نديًا، بل كان إلى حدّ ما جافًا وأجشَّ؛ لم يكن بلطافة صوت أمه على الإطلاق. ففي كل مرة كانت تناديه، كان يشعر أن تلك المرأة العربية تطلبه بنبرة غير محببة. في البداية كان الأمر كذلك، لكن رويدًا رويدًا اعتاد على صوتها. كان يعتقد أن في ذلك الغضب المختبئ في صوتها، يكمن موج متلاطم من الحزن، حتى أنه في بعض الأحيان كان يتصور أن المرأة تحسبه مقصرًا في [قضية] موت زوجها، أو سببًا في اختفائه، لذلك عندما كانت تغضب ماجدة، كان يسعى للاختباء في مكان ما، حتى ابنتها مائدة كانت تشعر بذلك، فيراها تتنحى جانبًا عن أمها، وتأخذ مسافة منها.

رفع سالم رأسه ونظر بطرفه، من فوق كأس اللبن، إلى ماجدة. كانت في آخر الخيمة مشغولة بإطعام طفلها. من يرَ

هذه المرأة كيف تطعم طفلها بهدوء وحنان، لا يتصور أنها تلك المرأة نفسها التي كانت إذا غضبت احمرّ وجهها، وبدا شعلة من نار، وارتجفت يداها، بحيث لو صودف شخص في طريقها، فلن يسلم من غضبها. ذات مرة لفّت شعر ابنتها حول رأسها بعنف، ولولا أن دخل الجيران عليها، لكان شعر ابنتها اقتلع من فروة رأسها. لكن بعد منتصف الليل ترى هذه المرأة نفسها تداعب شعر ابنتها، وهي تنوح على فراق زوجها، تمامًا مثلما كانت تفعل أمه كل صباح. كانت تضمّه إلى صدرها بقوة، وتنشد له الأغاني. لكن أين أمه الآن؟ لم يقدر أن يتصور في ذهنه أنها قتلت. في كثير من الأيام، كان يخرج بذرائع مختلفة، يبحث بين طيات الخيام، ويسأل الأسرى الجدد عن أمه وأبيه، لكن أحدًا لم يكن لديه خبر عن أيّ منهما. لقد جاؤوا من [خلف] مدن ومناطق بعيدة، لم يكن قد سمع باسمها حتى. كان يفكر أحيانًا بالهرب والرجوع إلى النهروان، لكنه لم يجرؤ على أن يأتي بحركة واحدة أثناء الليل، فشخير الحارس الذي كان يغطّ في النوم خارج الخيمة يرعبه.

- سالم! أين أنت؟ بماذا تفكر؟ انهض فلدينا الكثير من العمل.

بهذه الكلمات رجع سالم من سفر خياله. أدار رأسه حتى لا ترى ماجدة عينيه المغمّستين بالدموع. خرج من الخيمة وهو يمسح الدمع عن عينيه، مرّ بجانب الحارس؛ كان باسطًا ذراعيه، رابضًا في حرّ منتصف النهار. همس الفتى بصوت خفي «حيوان مؤذٍ». دمدم الكلب، فخاف سالم، وأسرع في مشيته، ثم سمع صوت المرأة

وهي تقول: «مائدة! أنت أيضًا تعالي لتساعدي سالمًا».

هرعت مائدة إلى خارج الخيمة، ونادته؛ فانتظرها! لقد اعتادت مائدة عليه في هذه الفترة، ركضت نحوه، أمسكت بيده، وانطلقا معًا إلى حزم القصب المتراكمة خلف الخيمة. بالأمس كانوا قد مهدوا الأرض، فانتزعوا الأشواك منها، وفرشوها بالرمل الأحمر الناعم. كانت الرمال تصدر حفيفًا تحت أقدامهم. تناول سالم عصا حادة الرأس، وحاول أن يغرزها في الأرض، لكن التراب كان صلبًا، نظر حوله، ثم طلب من مائدة أن تحضر له حجرًا محدد الرأس، وراح يحفر به الأرض. كان الحجر المحدّد يحفر الأرض كالمخلب، ويدخل في التراب الصلب، بينما راحت مائدة تأخذ التراب من خلفه، تجمعه بيديها وتدفعه خارجًا. عملوا حتى حفروا حول الرمل المفروش ثلمًا، كأنه جدول ماء. كان سالم مع كل ضربة في الأرض، يشعر بارتياح أكثر، فكان يضرب الحجر بغضب، ويتمتم بكلمات بصوت منخفض، لم تفهم الفتاة منها شيئًا؛ لكنها استمتعت بسماعها، كانت الكلمات شعرًا حفظه سالم عن أمه.

- هل تبكي يا سالم؟

رفع سالم رأسه، مسح دموعه بكمّ يده، ونفض رأسه نافيًا. لم يدر لماذا الآن يتذكر التهاويد التي كانت أمه تغنيها لأخيه الصغير، لم يكن يظنّ أنه يحفظها. كان أحيانًا يرى ضحكات أمه من خلف غشاء دموعه، وأحيانًا يرى تذمّرها عندما تغضب. كان يتحسّس وجهها الهادئ وهم يتحلقون حول النار

عند الصباح الباكر، حيث يُغمض والده عينيه، وينشد ترانيم، بينما هو يكررها بصوت خافت.

-ولدي! ميثم!

كانت أمه تناديه مباشرة بعد الدعاء. هو يعلم بأنها سوف تضع رأسه في حضنها، وتداعب شعره المنسدل، وتدعو له بالسلامة والعافية. كم كانت رائحة والدته تمنحه الطمأنينة والراحة عندما يلقي برأسه على صدرها، حينها كان يشعر بأنه طائر في سماء الصباح.

-ميثم!

رفع ميثم رأسه.

-سالم! ماذا تنشد؟

عندما رأى ماجدة مسح دموعه بعجلة، وعاد إلى عمله بهمّة ونشاط. لكن بعد لحظات قليلة، انهار الفتى، لم يستطع أن يتمالك نفسه، دوّى شهيقه في الفضاء. أمسكت ماجدة ذراعه، ورفعته إلى الأعلى. سالم يبكي بكاءً عاليًا. لقد كان الحجر أثقل مما كان يعتقد.

- ماذا جرى يا سالم؟

لم يفهم ما قالت المرأة، لكنه شعر بدفء الأمومة في صوتها. كانت ماجدة لأول مرة تناديه بتلك المحبة، خلافًا للأيام الأولى.

- مائدة! اذهبي بسرعة واجلبي قربة الماء.

سار سالم مع المرأة وهي تسانده، حتى جلسا في ظلل حزم

القصب. مدت ماجدة يدها تريد أن تمسح التراب الممتزج بعرق جبينه، لكنه لم يدعها تفعل ذلك. حرّكت شفتيها، فلم يفهم الفتى شيئًا، لكن صوتها ولحن أمومتها كانا يمنحانه الطمأنينة. رجعت مائدة ومعها قربة الماء، فطلبت المرأة منه أن يتقدم ويحني رأسه قليلًا، ثم ملأت كفها ماء ورشته على وجهه، بعد ذلك ملأ سالم كفيه وراح يغسل وجهه بالماء البارد.

ثم ما لبثت ماجدة أن نهضت، وتناولت الحجر، وبدأت تحفر الأرض.

ما إن حلّ الغروب حتى انتصب عريش القصب مثل سائر العرائش. كانت ماجدة تضحك وهي تأخذ جرسًا صغيرًا بيدها، [زيّنته بالأزهار] الحمر والزرق. علّقته بخيط على مدخل العريش، حركته ثم ضحكت وقالت: «ألا تعتقدون أن عريشنا قد صار أجمل من عرائش الآخرين؟».

لمعت عينا مائدة، فقفزت في الهواء تريد تحريك الجرس، لكن يدها لم تصل إليه. في هذه الأثناء طلبت منها أمها أن تذهب وتجلب أخاها الذي كان يبكي. أما سالم، فأحسّ بأن تعب اليوم قد زال بانتهاء بناء العريش، وزال معه حزنه، فتقدم بفرح، وضرب الجرس، فمال الجرس الذهبيّ الصغير يمينًا وشمالًا، وانبعث منه صوت لفّ عتمة ذلك المساء.

# **3**

- سالم! هناك دكان فُتحت مؤخرًا، فيها حلوى جيدة.

- لكنّني لا أملك شيئًا.

- لا تملك شيئًا؟ وهذا الكيس المليء بالقمح على ظهرك؟

ثم تذوق شفتيه وقال: «عجبًا كم هي شهية تلك الحلوى».

- لكن هذا القمح هو مؤونة شهر كامل لماجدة وأطفالها.

- قبضة من القمح لا تنقص منه ولا تزيد فيه شيئًا.

عض على شفتيه وأكمل:

- لن تعرف هذه العجوز العربية شيئًا.

- أنا لا أفعل هذا.

- كان علي إخبارك؛ لقد اتفقنا على أن يأخذ كل منا حفنة من القمح، ولعلك تكون شريكنا.

اتّكأ سالم على نخلة، وعدل كيس القمح على ظهره.

قبضاتٍ عدة من القمح فقط؛ من سيعرف بالأمر؟

هز سالم رأسه معلنًا رفضه، ثم حبس أنفاسه في صدره وسار. كان كيس القمح أثقل مما يتصور، ترنح قليلًا، لكنه فتح ساقيه، وأحكم وقفته، وعندما تمكن من الحفاظ على توازنه، انفصل

عن أصدقائه الفرس، وتقدم مبتعدًا عن النخلة. استدار خلف خيمة كبيرة - كانت مستودعًا لقمح أهل الكوفة - ثم انحرف بطريقه نحو ميدان كناسة.

كانت قبيلة بني أسد تستقرّ في الجهة الأخرى من الميدان، تمامًا مقابل المستنقع الذي جفّ مؤخرًا. وكانوا قد اتخذوا ممرًّا عبره، ليجعلوا طريقهم أقصر.

حل الغروب. بدت الشمس الحمراء كأنها تمتطي كيس القمح فوق ظهره. كان سالم يتقدم وسط المستنقع بخطوات ثقيلة، ويجهد نفسه ليصل إلى عريش ماجدة قبل حلول الظلام.

كان نسيم الغروب يهب تارة، فيتلاعب بشعره الطويل، وهو غارق في تفكيره؛ يتذكّر الشهور والسنوات التي قضاها في هذه المدينة. فالأيام الأولى كانت صعبة جدًا بالنسبة إليه؛ كل ليلة تأتيه أمه في الحلم، فيستيقظ أحيانًا في منتصف الليل على صوتها، ويشعر كأنها تلاطف أخته الصغيرة، وهي تنشد لها أغاني المهد حتى تنام. لكن عندما كان يعود إلى نفسه، يدرك أنه في خيمة تلك المرأة العربية، وأن الصوت صوت ماجدة التي تهدهد رضيعها البكّاء، وتنشد له كي يهدأ وينام.

لم تكن ماجدة امرأة سيئة. صحيح أنها لم تكن أمه، لكنها ليست سيئة. في الأيام الأولى كانت كثيرًا ما تصرخ وتصيح في وجهه لأي سبب وذريعة، وأحيانًا تلطمه بيدها الثقيلة على رقبته. كانت تتخذ من أي سبب ذريعة للصراخ، فيرتجف حيثما كان. لم تكن لترحم حتى ابنتها، فإذا صودفت مائدة بقربها، أمسكت

بشعرها، ولفته حول معصمها فيُسمع صراخها من بعيد. لكن مع تقدم الوقت ومرور الأيام، فهم سالم أن ما تفعله إنما بسبب اختفاء زوجها وائل، وأنها تكرهه لهذا السبب أيضًا، فهي تعتقد أن شعبه هم الذين سلبوها زوجها، لأنه اختفى في بلادهم.

في الأيام الأولى لقدومه، لم تكن تسمح له بالنوم قرب الخيمة، بل كانت تأخذه إلى قرب الحظيرة، وتربطه بنخلة هناك، وتضع بقربه كأسًا من الماء، ثم ترمقه بنظرات مليئة بالكره والغضب. لكن فيما بعد تبدل سلوكها شيئًا فشيئًا؛ فلم تكد تمضي شهور عدة بعد شرائه حتى سمحت له بأن يأتي إلى داخل الخيمة، ويتمدد هناك عند بابها، حيث قربة الماء وكؤوس الفخار. في البداية كان سلوكهما يوحي بأنهما يتبادلان الكره، في حين أن كل واحد منهما يحتاج إلى الآخر، ويجب أن يتحملا بعضهما بعضًا، لكن سلوك ماجدة قد تبدل، وأصبحت أكثر رحمةً وعطفًا، خصوصًا، بعد تلك الليلة الباردة، حيث دخلت لسعة الصقيع إلى الخيمة، بينما هو نائم قرب الباب، مكوّر على نفسه، مثل الشّاة، يرتجف من شدة البرد. في تلك الليلة، أخذت ماجدة غطاء من وبر الإبل، وضعته على جسد الفتى، وتمتمت بكلمات لم يفهمها؛ لكن صوتها كان يوحي بالأمومة، ما جعله يتذكر أمه للحظات. لكن بعد ذلك اليوم أيضًا، لم تتبدل نظرة كل منهما إلى الآخر.

كان سالم يعلم أن جهل ماجدة بمصير زوجها - أحيّ هو أم ميت- يضاعف من قلقها واضطرابها؛ لقد أدرك ذلك

من كلامها وحركاتها، خصوصًا بعد أي شجار أو سباب؛ إذ كانت تجلس في زاوية الخيمة، تلطم خديها وتخدشهما، وتدعو على نفسها وعلى أبنائها، وتنوح وتبكي على مصيرها، وتشكو تشردها، وكأنها في مأتم.

بينما كان سالم شاردًا في أفكاره، وإذا به يشمّ رائحة دخان من بعيد. وقف، قوّم ظهره، ورفع رأسه، وإذا به يرى دخانًا غليظًا يتصاعد من حيّ بني أسد؛ مشهد جعله يقطّب حاجبيه. كان لهب النار يرى عند الغروب من بين الدخان المتصاعد، وينغمس في قلب الظلام كل لحظة أكثر فأكثر. أسرع سالم الخطى. كانت الريح تهبّ فتزيد لهيب النار، وتوسع من دائرة الحريق. لم يعرف كيف استطاع أن يخرج نفسه من المستنقع إلى البرّ. كان الضجيج هناك يملأ حيّ بني أسد؛ النساء يصحن ويولولن، والرجال يركضون بكل اتجاه. في وسط هذه الجلبة، رأى مائدة تركض نحوه وهي تصرخ. كان كيس القمح على ظهره يتمايل بكل اتجاه، ويشتّت تماسكه واعتداله، فيأخذه يمينًا وشمالًا.

- سالم! ساعدنا يا سالم.

شحب وجه سالم، فوجه مائدة غارق بالدموع.

- ماذا جرى؟

-النار! النار! إنه عبد الرحمن!

ركض سالم، وعبر بين العرائش والسقائق. كان هناك رجل يحاول أن يهدىء من روع حصانه الفزع. أما الحصان فكان واقفًا على قائمتيه الخلفيتين، يدور حول نفسه، ويصهل صهيلًا

عاليًا، بينما قائمتاه الأماميتان ترفّان مثل أجنحة الفراشة. كان صهيله مرعبًا. غير أن صوت الرجل كان يفزع الحصان أكثر.

- مائدة! ما الذي جرى؟

لم تستطع الفتاة أن تنطق بحرف، انعقد لسانها من شدة الخوف. كانت تبكي فقط، وتشير إلى النار، وتنادي باسم أخيها، عبد الرحمن!.

وضع سالم كيس القمح بجانب حجر على الأرض، وطلب من مائدة أن تجلس فوقه، ولا تتحرك حتى يرى ما الخبر.

كانت ألسنة النار تتطاول عاليًا. لقد بدا اللهب في عتمة ذلك الغروب مخيفًا، فألسنة النار المتصاعدة من أعواد القصب الجافة تلتفّ وتدور وتصعد إلى عنان السماء، وأجيج احتراق القصب يختلط مع دخان وبر الإبل الممزوج برائحة اللحم المحترق. كانت النار تتلوّى، تهبط وترتفع، وتشبّ نحو العرائش، فتصبح أعواد القصب الصفراء، في لمحة، سوداء قاتمة، ثم تنغمس في وسط الدخان، فيستعر اللهب مرة أخرى، ويتساقط العريش متداخلًا في بعضه بعضًا، ويسمع أجيج النار وهجيجها، وتعلو ألسنتها وتستعر. عرف سالم صوت ماجدة، من بين بكاء النساء، وهي تنادي طفلها. على مسافة ليست ببعيدة، بضع نساء تحلّقن في مأتم حول جنازة نصف محترقة، وهنّ يخدشن وجوههنّ، وينُحن ويصرخن. كان المشهد مزدحمًا، اختلط الرجال بالنساء، كان الجميع يهرعون يمينًا وشمالًا، لكن أحدًا منهم لم يستطع فعل أي شيء؛ فالنيران مهيبة ومرعبة وحارقة.

لم يكن أحد ليملك الجرأة على الاقتراب. غير أن نواح النسوة وصراخ الرجال الذين راحوا يهرولون في كل اتجاه، قد زاد من خوف الأولاد.

أدار سالم بصره، وراح ينظر يمنة ويسرةً، فلم ير ماجدة. كان يسمع من خلف جدار اللهب صراخًا. لقد التفّت النيران وأحاطت بالعرائش مثل الحلقة، وراحت تلتهمها واحدة تلو الأخرى. كانت تلتهم كل شيء كأنها ثعبان.

- لقد علقت النساء والأطفال هناك.

- فليرحمهم الرب.

- ألا يوجد أحد يذهب فيساعدهم؟

سمع سالم صوت ماجدة مرة أخرى. إنه صراخ المرأة، كان يأتي من خلف جدار اللهب. تقدم سالم، وتخطى جموع الناس بصعوبة. كان شديد القلق على ماجدة. راح يتفحص بعينيه البنيّتين الثاقبتين أطراف أشعّة اللهب، لعلّه يرى ماجدة؛ لكنه في وسط ذلك الضجيج، لم يرها، ولم يعد يسمع صوتها.

- لو أن الماء موجود.

- ليتنا لم نجفف المستنقع.

- في الخلف، هناك، علقت امرأة وطفل في النار.

- من فعل هذا؟

- من يفعل هذا؟! إنه أحد هؤلاء المجوس؛ عبدة النار، الأنجاس!

- كان يجب أن لا نسمح لهم بدخول الكوفة.

- لا تحكم بهذه السرعة يا أخي. يقولون إن النار بدأت من بيت أم خالد.

- هي لا تملك خادمًا.

-ماذا تقول؟! أنا أقول إنه من فعل هؤلاء المجوس الأنجاس. ألا ترى الحقد في أحداق عيونهم؟

لم يكن سالم يسمع شيئًا وسط هذا الضجيج. لقد هز وجوده الخوف والقلق؛ فهو ومنذ أن وضع ثوب زوج ماجدة الطويل على جسده، ما فتئ يسمع كلام الرجال العرب، ليلًا ونهارًا؛ عَبَرَ بسرعة، وتوجّه إلى الناحية الأخرى، حيث توجد نساء عدة ينتحبنَ ويبكين. هناك رأى مائدة تشير إلى النار. لقد تركت كيس القمح.

- أين أمك؟

- ذهبت لتخلص عبد الرحمن.

في هذه اللحظات، سمع سالم نباح الكلب. رأى ذلك

الحيوان يثب ويخرج من بين ألسنة النار. التفت الكلب إلى جموع الناس وراح ينبح، ثم وثب مرة أخرى ودخل في النار واختفى فيها.

- مسكينة ماجدة! في المرة الأولى زوجها، وهذه المرة هي نفسها.

اضطرب سالم وتغيّر لونه، ثم ركض في الاتجاه الذي ذهب فيه الكلب.

- أيها الفتى! لا تذهب. هناك خطر.

في تلك اللحظة، هبت ريح بغير اتجاه، فلوت ألسنة النار ودفعتها إلى تلك الجهة. كان الكلب ينبح كأنه يطلب النجدة. عندئذٍ شقّ سالم ثوبه ليتمكن من التحرك بشكل أفضل، ثم وثب فوق جدار النار، قاصدًا الجهة الأخرى، وغاب بين الدخان والنار وسط صراخ الناس وصيحاتهم، ثم توجه حيث يُسمعُ صوت نباح الكلب. كانت الريح كالمجنونة تدفع النار يمينًا وشمالًا، صعودًا وهبوطًا، بينما لهيبها يلفح وجهه، وهو يحاول صدها بساعديه، ويتترّس خلف يديه. عندما وصل، كان الكلب قرب شجرة النخيل، وهو يدور حول ماجدة. كانت المرأة تحتضن طفلها إلى صدرها بقوة، وقد احترقت يداها ورجلاها. إنه لشيء أكيد، فليس غريبًا أن تفدي طفلها بنفسها!

- هيا، قومي!

- لا أستطيع.

- سوف تستعر النار أكثر.

- أنقذ عزيزي يا ولدي!

انهار البغض الذي كان يسكن حنجرة ماجدة دفعة واحدة. فلأول مرة تناديه «يا ولدي». رفعت ماجدة بكمّيها المحترقين ولدها المذهول «عبد الرحمن» ودفعته باتجاه سالم.

- لا! سنذهب معًا.

عندما رأى سالم أن أنفاس ماجدة لا تخرج من صدرها إلاّ بصعوبة، راح يتلفت حوله بين ألسنة النار، فوقع نظره على قربة ماء. كان جلدها المبتل بالماء يلمع تحت ضوء النار، هرول إليها مسرعًا، وجدها مليئة بالماء، قطع رباطها بأسنانه، وأخذ يصّب الماء في كفه ويرش به وجه المرأة. لم تمض برهة من الزمن حتى شهقت ماجدة، وأخذت نفسًا عميقًا، وبدت كأنها استيقظت من نوم عميق. كان الخوف الشديد ظاهرًا في عينيها، بينما الكلب لا يزال يدور وينبح بقلق.

- يجب أن نذهب.

أمسك الفتى بعضد المرأة، وساعدها حتى تنهض.

- لا! اذهب أنت وخذ معك عبد الرحمن.

أخذ سالم قربة الماء، وسكبها على ماجدة وطفلها، ثم بلل ثيابه.

- إذا لم تحرقنا النار، فإن دخانها سوف يخنقنا.

تنحنح سالم، ثم أخذ عبد الرحمن، وأمسك بيد المرأة. كانت

ماجدة تمشي وتغمز برجلها. لا شيء يُرى من خلال النار والدخان. كان الكلب يتقدمهم، يسير بين فجوات اللهب، ثم يعود أحيانًا، فينبح ثم يرجع ويتقدم.

كان سالم يحاول أن يتنفس بهدوء، لكن ماجدة ذهلت وبدت في عينيها الدهشة، وكلما تقدمت خطوات، كانت ترجع وتنظر إلى خيمتها؛ لقد أحرقت النار كل حياتها، وأخذت منها كل شيء. كانت جمرات النار المضيئة تشتعل بسهولة مع وبر الإبل والسمن واللحوم المحترقة.

ما إن عبروا جدار اللهب حتى التهمت النار كل شيء. لم يبق سوى قبضة من الرماد. كانت النار تجمع نفسها، وتبتلع العرائش القريبة من خيمتهم. التفت سالم بطرفه إلى الوراء؛ لو تأخروا قليلًا عن التحرك، لقُضي عليهم. أوصل سالم المرأة إلى جهة النساء بشقّ الأنفس. كانا يسيران باتجاه الناس كأنهما ظلاّن في عتمة الليل، بينما الناس ينظرون إليه بتعجب وذهول، وهو خارج من بين النار والدخان، يحمل طفل ماجدة، ويضمه إلى صدره.

ما إن رأتهما مائدة حتى ركضت إليهما، وأخذت عبد الرحمن من سالم.

مع مرور الوقت، راحت النار تبتلع ألسنتها بالسرعة نفسها التي اشتعلت فيها. كان الليل قد أُشبع برائحة سعف النخيل، ووبر الإبل والغنم، ونواح النساء. حتى تلك الساعة لم تكن ماجدة لتصدق ما جرى؛ كانت عيناها لا تزالان مسمّرتين نحو الجمرات التي تختال (متوهّجة) بفعل هبوب الريح، وهي تداعب رأس ابنتها مائدة. لم يبق لديها شيء؛ لا منزل، ولا زوج، ولا أحد يواسيها في وحدتها هذه، سوى سالم الذي أنقذ حياتها من الموت.

# **4**

لولا هذا الفتى العجميّ لما كنت أنا وطفلي في عداد الأحياء، يا أبا سعيد!

نظر الرجل العجوز نظرة إعجاب إلى سالم، الذي كان مشغولًا في الجانب الآخر من كومة التراب، يدقّ الطين برجله، وقد بدت فوق شفته خطوط من الشعر الناعم.

يظهر من ملامح وجهه أنه ابن عائلة كريمة.

كان الفتى الفارسي يطلب من عبد الرحمن أن لا يذرّ التراب في الهواء، لكن عبد الرحمن لم يتوقف، بل كان يعبث أكثر، فيرمي التراب عاليًا، وتأخذه الريح ناحية سالم.

- الفتى عفيف وعطوف، يا عم!

- من المؤسف أن يكون عجميًا!

هزت ماجدة برأسها ولم تقل شيئًا. تقدمت نحو الرجل لتناوله وعاء الطين الذي كان على رأسها، وهي تقول: « كانت علامات النجابة ظاهرة عليه منذ ذلك اليوم الذي اشتريته فيه».

- لعلّه كذلك! لكنه في النهاية عجميّ، لا تجري فيه الدماء العربية.

- ما هذا الكلام أبا سعيد؟ صحيح أننا على دين الإسلام، بينما هم على دين آخر، لكن جميعنا من البشر!.

ضحك الرجل العجوز وتناول وعاء الطين، ثم التفت إلى شجرات النخيل الواقعة ناحية المستنقع، وقال: «على كل حال، هو أعجمي وغريب عنا وعن ديننا». قال ذلك، وأخذ قبضة من الطين ومسح بها اللبنات الرطبة، ثم نظر إلى وجه ماجدة الأسمر المتعب، وقد جفّت بقع الطين على أنفها وجبينها، وتابع كلامه: «صحيح أن الإسلام يقول شيئًا آخر، ويعدّ التقوى معيارًا، لكنني عربيٌّ وأنا أفتخر بماضيّ». ثم أضاف وهو يشير بإصبعه المغطّاة بالطين إلى سالم: «كما الكره الذي يملأ عيون هؤلاء».

-لكنه يختلف عن البقية، إنه مثل الملائكة.

- عندما يكبر سيختلف كل شيء. انظري إلى ولدك كيف يلعب معه؛ لكن عندما يدرك أن هذا المجهول غريبٌ، ويعلمُ أنه على دين آخر، سوف يتبدّل سلوكه حتمًا.

-سالم يحب ديننا، أنا أدرك ذلك عندما ينظر إليّ وأنا في الصلاة، حتى أنه...

-مهما يفعلون! إنه جنسكنَّ أنتنَّ النساء، جنس أموميٌّ منذ الأزل.

انحنى الرجل المسنّ، وتناول لبنة وصاح: «أيها الفتى الفارسي! اجلب اللبنات».

رفع سالم رأسه. كان مشغولًا بأخذ الطين بكفيه وصبه في

القالب، ليصنع منه لبنات من الطين.

كان الرجل يعلم أن الفتى يصغي بأذنيه الصغيرتين الحادتين إلى كلامهما. أما ما المقدار الذي يفهمه، فهذا كلام آخر. لكنه فهم من حركاته أنه يستمع إليهما بكل جوارحه.

صاح العجوز مرة أخرى: «أيها الولد العجمي! اجلب لي أنت وعبد الرحمن بعض اللبنات الجافّة. لا أريدها رطبة مثل سابقاتها».

وقف سالم، وتوجه نحو اللبنات المصفوفة فوق بعضها بعضًا، وضع واحدة فوق عضدي عبد الرحمن، وحمل بنفسه ثلاث لبنات، وضعها فوق بعضها بعضًا. كانت اللبنات ثقيلة ولا تزال رطبة قليلًا - إنهم مجبرون على بناء مأوى لهم قبل حلول برد الشتاء. تقول ماجدة إنهم سيشعلون نارًا داخل الجدران حتى تجف بسرعة- وضع سالم لبنات الطين على الأرض، أحسّ بنظرات المسنّ الثقيلة مسلطة على كتفيه، أراد

الذهاب ليجلب حملًا آخر، فنادته ماجدة:

- تعال يا سالم! اشرب كأس الحليب هذا لتستعيد نشاطك.

قال الرجل بتهكّم: «تتصرفين وكأنه ولدك!».

- ولدي! لولاه لما كنا الآن على قيد الحياة.

مسح الطين عن لحيته الطويلة وقال: «لقد تناهى إلى مسامعي تلك الشجاعة التي ظهرت منه ذلك اليوم! لكن بكل الأحوال، مهما فعل فإنه ليس منا».

التفّ سالم حول الجدار. لاحظ أن فيه بعض الاعوجاج، وأن لبناته منحرفة قليلًا إلى الداخل والخارج. لكن في النهاية لا يوجد شخص آخر يساعدهم سوى جارهم المسنّ هذا. تقدم سالم باتجاه ماجدة، كانت تضع قربة الحليب على قدمها، وقد تمدد حليب الإبل الأبيض داخل الكأس الخشبيّة راسمًا على حوافها خطوطًا بيضاء. كانت الكأس مزينة بخطوط حمراء كالخيام، وضعتها ماجدة لتبدو جميلة. مدّ يده ليتناول كأس الحليب، لكن ماجدة قالت له ووجهها متجهم: «اغسل يديك أولًا، حتى لا يسقط الطين في الحليب».

تبسم سالم عندما رأى وجه ماجدة المتجهم قد انقلب إلى بسمة جميلة ارتسمت على شفتيها، ثم انطلق إلى حفرة كانت ناحية الجدار، أدخل يديه في مائها العكر حتى وصل الماء إلى مرفقه، غسل يديه وأزال الطين عنهما، ثم عاد. كانت ماجدة تنتظره وفي يدها كأس مليئة بالحليب. بدت قامتها طويلة ونحيلة، تمامًا مثل أمه. لكن عينيها كانتا مختلفتين، فلونهما

أكثر سوادًا، وحدقتاهما أكثر اتساعًا. تناول سالم الحليب وهو يبتسم. الحليب بارد وطيب، لقد أثلج قلبه، تناول قليلًا منه، وبحركة من شفتيه عبّر بها أنه لذيذ. عندما تناول الحليب لأول مرة، لم يستسغه، لكنه فيما بعد اعتاد على شربه. أما اليوم فإنه يظنّ أن لا شراب في الدنيا أفضل من حليب الإبل. لعق شفتيه وهو يفكر؛ هذا الحليب يمنحه قدرة أكبر ويمدّه بالطاقة حين يعمل. راح سالم ينظر في قعر الكأس، بدت السماء الزرقاء وغيومها الرمادية من خلال ما بقي فيها من الحليب القليل، ثم رفع الكأس وشرب ما بقي فيها دفعة واحدة.

سألته ماجدة: «أتريد أكثر؟ ما زال هناك المزيد منه». أشار سالم برأسه؛ لا. ثم ناولها الكأس الفارغة.

ملأت ماجدة الكأس وأعطتها لابنتها، وطلبت منها أن تشرب النصف فقط، وتعطي نصفها الآخر لأخيها عبد الرحمن. ثم عقدت رباط القربة، ووضعتها جانبًا. بعد ذلك توجهت نحو الرجل العجوز، أخذت منه كأسه الفارغة وأدخلتها إلى الخيمة.

رجع سالم إلى لبنات الطين، حمل عددًا منها، ثم توجه إلى الجدار المعوج. تناول العجوز اللبنات منه وقال: «تقول أم الفضل إنك عصاها التي تتوكأ عليها، يا ابن العجم!».

كانت الكلمة الأخيرة مزعجة، قالها بطريقة لم تعجب سالمًا، غير أنه لم ينطق بكلمة واحدة. ناوله اللبنات ورجع بهدوء. وضع الطين الذي جهزه مسبقًا فوق جلدٍ من الماعز، وحملها فوق ظهره، وجلبها إليه. تناول الرجل قبضة من الطين ومسح بها

الشقوق التي كانت تظهر بين لبنات الجدار الأعوج، فسدّ بها فجوة بين لبنتين. ثم التفت إلى الفتى وقال: «كيف دارت بك الأيام ووصلت إلى الكوفة وأنت بهذه السن؟ كنت أسيرًا؟».

رجع الفتى لجلب اللبنات ولم ينبس ببت شفة، لكن المسنّ تابع كلامه: «هل جميع العجم مغرورون إلى هذا الحد؟!». ثم ضحك، وقال: «لديكم الحق. فبلادكم المترامية الأطراف قد تمزقت تحت سنابك خيولنا». ثم تنحنح وتابع قائلًا: «يقول رجل من قبيلة مُضر إن ملككم فر إلى الجبال، ولا أحد يعلم عنه شيئًا، لعله قتل أيضًا. ما كان اسمه؟ ها... تذكرت: يزدجرد».

كان الرجل يلهث وهو يضع لبنة فوق أخرى، حتى ظهر انتفاخ كبير في الجدار، وبدا أنه سينهار عمّا قريب.

لكن المسنّ كان يتكلم، وهو يمسح أطراف الجدار بالطين: «لا يُعمر بيت حتى يخرب بيت آخر». ثم تابع بازدراء وقد ارتسمت على جبهته خطوط عدة: «لملككم اسم عجيب، لكن الأعجب منه هو أنت». بعد ذلك انحنى وهو يقول بصوت خافت: «كيف دخلت إلى قلب هذه المرأة من قبيلة بني أسد؟ إنها تحبك أكثر من ولدها».

لمعت عينا سالم وتلألأتا فرحًا من كلامه، لكنه بقي صامتًا. تناول لبنة وأراد أن يفتح فمه ليقول شيئًا، لكن ماجدة وصلت فجأة وقالت: «أنت يا سالم! اذهب واصنع أحجار الطين، وأنا سأناول أبا سعيد اللبنات». ثم أدارت رأسها نحو مائدة وهي غاضبة: «مائدة! اجمعي تلك الأخشاب وضعيها بالقرب من الكلب».

كان سالم يريد أن يقول للمسنّ: إذا أكملت بناء الجدار على

هذا المنوال فسوف ينهار، لكن ماجدة طلبت منه أن يذهب، فبلع سالم ريقه، وتجمد الكلام في فمه، وعاد إلى الطين.

- هذا المخلوق عجيب؛ غلامك الذي اشتريته!

- ماذا جرى، يا أبا سعيد؟

- لا يفهم لغتنا أو أنه...

- سالم قليل الكلام.

- لكنه يتحدث جيدًّا إلى ولدك، ويضاحكه ويمازحه.

- لقد تعلم لغتنا. إنه يفهم جيدًا، غير أنه قليل الكلام. عندما نكون وحدنا فقط يتحدث عن أبيه وأمه، وعن الماضي و...

- لم يكن محاربًا، أين أُسر؟

- المسكين! كان والده بائع تمر في النهروان. إنه قلق كثيرًا على أبيه وأمه.

- أليسا أسيرَيْن؟

- لقد ذهبنا مرات إلى السوق؛ كلما جاؤوا بأسير، أو أتى أحد من بلاد بعيدة، كنا نذهب إلى السوق، لكننا لم نعثر عليهما، ولا خبر عنهما.

ثم توجهت إلى وعاء الطين، نقلته من مكانه وهي تقول: «ألا يبدو هذا الجدار مائلًا؟».

ضمّ المسنّ شفتيه ضاحكًا، وقال: «إنه أكثر استقامة من جدار الخيمة، انظري جيدًا».

- لكن هذا يختلف عن الخيمة، يا أبا سعيد!

- لا فرق بينهما، المأوى مأوى.

لم تقل ماجدة شيئًا، تأوّهت فقط، ثم تابعت حديثها عن الفتى: « كان يعيش مع أهله في النهروان، لكنه يقول إنهم ليسوا من هناك. إنه يتحدث عن بلاد عجيبة، جبالها شاهقة ومكسوة بالثلوج، والربيع فيها مفعم بالزهور والأشجار المختلفة الأشكال والألوان. هل تصدق ذلك؟

-لا بدّ أن الفتى قد رأى الجنة في منامه.

- لعله جاء من الجنة أيضًا؛ إنه طاهر مثل الملاك.

قلبت المرأة يديها وأرته الحروق الظاهرة عليهما، وقالت: «من أي مكان جاء! فهو ملاك نجاتي ونجاة ولدي».

- لكن الكلام بهذا الشكل عن عبد أعجمي ليس صحيحًا!

التفتت ماجدة إلى سالم، وراحت تنظر إلى منكبيه العريضين كيف يتحركان بقوة وهو يقلب أحجار الطين، وينقلها من مكان إلى آخر، وقالت:

- ألا تذكر الحريق الذي حدث قبل عامين؟

- يقولون إنّه من فعل هؤلاء الأعاجم.

- أنت أكثر من يعلم أن النار خرجت من تنور أم خالد.

- على كل حال هذا الفعل قد كتب في صحيفتهم.

- تلك العجوز المسكينة! هي ليست مقصّرة أيضًا، كانت تريد أن تعدّ وليمة لقدوم ولدها.

- لقد رحم الله قبيلة بني أسد، ولم يمت أحد منها.

تأوهت ماجدة ولم تقل شيئًا.

- لماذا لم تفري عندما رأيتِ النار؟

- أردت جلب بعض الأمتعة. فكرت حينها أن النار بعيدة، فأين النار من عريشنا؟ لكن الريح كانت تهب بشدة، فتجعل النار تدور كالحلقة، وتحمل معها أعواد القصب المشتعلة، فسقط بعضها في عريشنا، وما إن التفتّ إلى نفسي، حتى وجدت النار قد أحاطت بي من كل جانب كأنها الجحيم. لكن حارسنا لم يتركنا وحدنا، كان يدخل إلى وسط النار ثم يعود. الكلب هو من أخبر سالمًا بوجودنا وأرشده إلينا. كان يدور حولنا وينبح نباحًا عاليًا. لقد وصل بي الأمر أن قطعت كل أمل، لم يعد باستطاعتي أن أتنفس، حتى ظهر سالم فجأة.

تناول الرجل لبنة، وضعها فوق الجدار. كانت اللبنة ثقيلة، لم يستطع وضعها في مكانها المناسب، اهتز الجدار، فرفعها بيديه، ونظر بطرفه إلى سالم. كان يفكر بحاله (كم كان جيدًا لو أن له ولدًا أو عبدًا مثل هذا الشاب يعينه في كبره)، ثم التفت إلى ماجدة وقال لها: «لهذا السبب أنتِ تعطفين عليه إلى هذا الحدّ!».

أرادت المرأة أن تقول شيئًا، وإذ بها تصيح «انتبه يا عم! الجدار! الجدار!...». اهتز الجدار بشدة، ثم انهار إلى الأرض. أما المسنّ فلم يستطع أن يسحب نفسه إلى الخلف، وراح يتمتم ويشتم نفسه، بينما يئن ويفرك كاحله ويقول إن بناء البيوت ليس عمله.

وقف الجميع ينظرون إلى أحجار الطين المهشمة بدهشة

وتحير. بدا الرجل مصدومًا، أمسك دشداشته، ورفعها منزعجًا. كانت الدماء تسيل من قدميه، وهو يئن ويولول ويكيل الشتائم للعجم. ثم طلب من سالم أن يعينه حتى يذهب إلى خيمته. توجه سالم نحو ماجدة وهو منزعج. كانت المرأة مسمرة في أرضها، وقد انقبض جلدها المتجعد من شدة الاضطراب، لم تصدق ما حدث. كان الوحيد عبد الرحمن يركض ويصيح فرحًا «لقد خرب... لقد سقط الجدار... خرب البيت». ثم ركض نحو الجدار وقد أصبح كومة من الطين المهشم، لكن ماجدة صاحت به أن يصمت. تقدم سالم من الرجل، أمسك به وساعده حتى يقف على قدميه، وهو يفكر ويقول في نفسه: يجب أن يبدأوا العمل من جديد لكن هذه المرة بأنفسهم.

# **5**

رجل من العجم قتل الخليفة وفرّ هاربًا.

- منذ اليوم الأول كنت أقول لا يجب أن نثق بحمر الوجوه أولاء.

- من هو الخليفة التالي يا ترى؟

- سمعت أن الخليفة عيّن قبل موته «شورى»، على أن ينتخبوا واحدًا منهم.

كان الحديث عن مقتل عمر في كل مكان؛ الخليفة الذي طعنه رجل فارسي بخنجره عند الفجر، ثم فرّ تحت جناح الظلام.

كان سالم يسمع أحاديث الناس، وهو يحمل سلة التمر على كتفه، متنقلًا يبحث عن مشترٍ لتمره. كان العرب يتحدثون بأسلوب جعل الفتى يخاف، ناهيك عن نظرات عُيُونهم التي تثقل كاهله، وهو يرى الإحساس بالكراهية في عيون بعضهم. كانت خطواته بطيئة، يتنقل طالبًا مشتريًا لتمره الذي أعطته إياه ماجدة ليبيعه.

- لا تَصُحْ عاليًا أيها المجوسي القبيح!

- لكني مسلم.

-هاها... مسلم! لا شك أن القاتل الظالم الذي طعن الخليفة

قرب مسجد النبيّ كان مسلمًا أيضًا! هيا ارحل من أمام دار الإمارة.

أسرع سالم الخطى، وعبر بالقرب من العمال والبنّائين؛ كانوا منهمكين ببناء سور عالٍ لدار الإمارة. أكثر العاملين كانوا من ذوي البشرة السوداء. كان سالم يعرف البنائين الفارسيين منهم. كانت مجموعة من العمال يدقون الطين بأرجلهم، وهناك آخرون يحملون لبنات الطين الثقيلة على أكتافهم، والعرق يتصبب من جباههم وهم ينقلونها إلى بنّاء ضخم الجثة. كان البنّاء يقف على «سقالة» من الخشب، ويصيح بهم حتى لا يتكاسلوا، ويتابعوا عملهم من دون تلفّت أو لهو. مرّ سالم بالقرب منهم، فتقدّم عامل طويل القامة، نحيل الجسم، مد يده وتناول تمرة ووضعها في فمه، فالتفت سالم على صوت فم الرجل وهو يمضغ حبة التمر، ورَمقه بنظراته، فتقطّب وجه العامل، ثم ضحك ضحكة ازدراء واستهزاء، لكنه ما لبث أن عاد إلى وسط الطين حين سمع صراخ البناء، واستأنف عمله.

أكمل سالم طريقه، وتوجه إلى سوق الأحذية. وقف يتأمل الأحذية الخشبية والجلدية، وهي مُعلقة ومتدلية من أحد الأعمدة. أما الأحذية المصنوعة من ليف النخيل فكانت مكومة في زاوية من زوايا الدكان. نظر سالم إلى صندله القديم المتهالك؛ كان تراب الزقاق الحار يؤذي أصابع قدميه الصغيرة. بينما هو واقف أمام الأحذية، وإذ بفارس ملثم يمتطي حصانه يمر على مرمى من بصره. مضى الفارس مسرعًا، وتوجه نحو الباب

الخشبيّ الكبير لدار الإمارة، ثم لحق به من كان في الأطراف من العرب. حتى أن بائع الأحذية مدّ عنقه ليرى ما الأمر! أما العمال فتوقفوا عن عملهم، ولم يعيروا أيّ اهتمام لصراخ البنّاء، وقفوا يريدون معرفة ما الخبر الجديد! تقدم الجنود وهم يحملون رماحًا حادّة تلمع تحت أشعة الشمس، ثم راحوا يبعدون الناس من حول الفارس. فكر سالم قليلًا وراح يحدث نفسه؛ ما الذي يربطه بمقتل الخليفة؟! لماذا يهتم للأمر؟ ثم اتخذ طريقه واتجه نحو سوق السمك. كان يفكر ويضحك.

كانت ماجدة قد تقدمت بالسّن، وأصبحت أكثر رحمة وعطفًا، خصوصًا، بعدما يئست من العثور على زوجها. يقول بعض الناس إن نهر دجيل الكبير[[1]](#footnote-1) قد فاض وطغى عن حده، فأخذ معه عددًا من الناس إلى البحر. الله وحده يعلم إن كان زوجها من بينهم أم لا! على الرغم من ذلك، كانت ماجدة إذا حلّ الليل تنام قرب الباب، وتهرع خارج الغرفة مع كل صوت صغير.

مسح سالم العرق عن جبينه، ونقل سلّة التمر إلى كتفه الأخرى، ثم أسرع الخطى وهو يفكر؛ يجب أن يبيع التمر قبل حلول الغروب. مهما يكن، فهو ابن بائع تمر، ويعلم جيدًا ماذا عليه أن يفعل. لكن في الأيام الأخيرة التي شاع فيها أنّ رجلًا فارسيًّا يدعى «هرمز» قتل الخليفة، لم يكن أحد من العرب ليشتري منه التمر، كما أنهم صاروا ينظرون إليه بكراهية،

ويشتمونه إذا نادى على تمره. وهذا ما كان يقلقه بشدة.

- يجب أن لا نسمح لحمر الوجوه هؤلاء بالتردد إلى أي مكان يريدون.

- أنا قلق جدًا على زوجتي وأطفالي؛ فهل من يقتل الخليفة يرحم عيالي؟

- الحقد ملأ قلوبهم.

- نحن المساكين! الأفعى في أكمامنا، وقد غفلنا عن لسعاتها.

- هؤلاء «العلوج»[[2]](#footnote-2) إنهم وحوش تمشي على أقدام.

- ماذا تقول يا بكر؟ أنت أفضل من يعلم أن عددًا كبيرًا منهم مسلمون...

- لا قيمة لإسلام هؤلاء القباح الحمر الوجوه.

قال رجل متوسط العمر منهم، وقد سطعت الشمس على وجهه العريض القاتم، وبدا عليه الغضب: «أنا لا أفهم هذه الأشياء. لقد ظهر الرسول بيننا نحن العرب. أما هؤلاء فمهما ادعوا الآن أنهم مسلمون، بالنهاية هم من العجم وعبدة النار».

كان الرجال العرب يتصايحون بين السوقين. مرّ سالم بجانبهم، وأسرع إلى سوق السمك. كان السوق الوحيد المظلّل بسقف. ما إن دخل السوق حتى ارتجفت أرنبة أنفه، وشعر بالغثيان؛ كانت رائحة السمك كريهة جدًا، حاول العبور بجانب

حفرة مليئة ببقايا السمك المختلط بالماء والطين. بدت الأسماك كأنها تنظر إليه بعيونها المفتوحة المتلألئة، وهي تفتح بعضًا من أفواهها، فيما أذيال بعضها ما زالت تتحرك.

-أيها الشاب! أتريد السمك بدلًا من التمر؟

وقف سالم للحظة، ثم رجع إلى الوراء قليلًا، وراح ينظر إلى الرجل صاحب المنكبين العريضين. كان الرجل يتكئ على عمود مصنوع من جذع نخلة يابسة. اقترب من الرجل الضاحك وهو متردد. بدا الرجل منحسر الشعر، كثيف اللحية، قد غطى الشعرُ وجهه. امتلاء وجنتيه وبروزهما يظهران أنه فارسي. كان يقف بجانب العمود كأنه قطعة من الصخر. إنه من أهل الديلمان المشهورين بأجسامهم الضخمة.

انحنى الرجل وأمسك بذيل سمكة، ثم رفعها عاليًا.

- إنها شهية مثل تمراتك. هذا إن كنت خبيرًا بالسمك!

ثم أدار السمكة، فبانت على بطنها الأبيض خطوط من الماء الممزوج بالدم، هذا المشهد جعل قلب سالم يتقطع، غير أنه تبسم...

مد الرجل يده ليتناول التمر، فصاح الشاب:

- لا تفعل! سوف يختلط التمر برائحة السمك.

نظر سالم حوله، فرأى بعضًا من سعف النخيل، أخذها ثم تناول قبضة من التمر ووضعها على أوراق النخل.

-هذه فقط!؟ هذه التميرات سوف تضيع في أمعائي.

قال جملته ثم علت قهقهته.

مد سالم يديه وتناول قبضتين من التمر ووضعهما فوق الأولى. عندها قبض الرجل بأصابعه على تميرات عدة، ودفعها إلى فمه مرة واحدة، ثم بدأ يخرج نواتها واحدة تلو الأخرى من زاوية بين شفتيه، وهو مقطب الحاجبين. فجأة لمعت عيناه، وهز برأسه معلنًا أنها شهية. تناول قبضة أخرى، ففرغت أوراق النخيل من التمر، ولم يبق عليها شيء، وسالم ينظر إلى فمه بتعجب. عندما رأى السؤال في نظرته، مد يده وتناول قبضات عدة من التمر، ورماها فوق سعف النخيل اليابس، حتى فرغت زاوية من السلة. قال الرجل وهو يلوك بفمه: «الآن صار الأمر مختلفًا». بعد ذلك توجه إلى لوح وضع عليه أسماكًا كبيرة، وتناول إحداها، وقال: «سوف أعطيك واحدة من الأسماك الكبيرة، إنها طازجة وشهية، تأخذها إلى سيدك، حتمًا سيسرّ بها. إنها أفضل أنواع سمك الفرات. لقد اصطدتها بنفسي».

بقي سالم متحيرًا لا يدري ماذا يفعل!

- تعال خذ السمكة.

- وماذا أفعل بها؟

- تأخذها إلى سيدك.

ضحك سالم، وقال: «ولكني إلى الآن لم أَبع نصف تمري».

- يمكنك أيضًا أن تأخذ سمكة أخرى.

حكّ سالم شحمة أذنه وضحك.

وضع الرجل السمكة في سلة كبيرة فارغة، وقال له: «هذه السمكة ملك لك، عندما تبيع تمرك، ارجع وخذها».

- هي أمانة لديك.

اندفع الرجل بصدره إلى الأمام، قائلًا: «أيها الشاب! أنا وأنت من بلاد فارس، فهل بيننا من خيانة؟!». ثم أراد أن يقول شيئًا، وإذ بامرأة قد ظهرت أمام الدكان، تريد شراء السمك.

لم ينتظر سالم، حمل سلته وانطلق.

- إياك أن تنسى سمكتك.

مضى سالم وهو يلوّح بيده، محاولًا أن لا تقع قدماه في الطين والدم الممزوج بالماء. كانت الدبابير والزراقط تحوم وتدخل في بقايا السمك والماء الملوث بالدم، وصوت طنينها يملأ فضاء السوق، كأنها لا تريد أن تفارق المكان. أما الذباب فقد ملأ السوق، حتى لا يكاد يخلو منه مكان. أطبق سالم على أنفه بإصبعيه، وعبر مسرعًا من أمام بائع يكاد سمكه أن يفسد، ثم انتهى إلى آخر السوق، حيث يوجد ميدان، اجتمع فيه عدد من الرجال. قال في نفسه: لعلي أبيع تمري هناك! ما إن أسرع الخطى حتى سمع صوت رغاء. لقد تجمع عدد من الرجال ينحرون جملًا. كان الحيوان يهدر والدم يتطاير من منحره، ويعلو في الهواء كالنافورة، ثم يعود إلى الأرض كالمطر، بينما الحيوان يحاول أن يقطع الحبل الذي يقيد قوائمه ليقف مجددًا، لكنه لم يستطع أن يحرك رقبته الطويلة، وبقي يهدر، ويفحص الأرض بقوائمه، بينما يفقد جزءًا من روحه كل لحظة. كان المشهد مريعًا. لم

يتحمّله سالم، فتابع سيره وخرج من الميدان. في آخر الميدان تجمع عدد من الأولاد. ما إن تخطاهم حتى تبعوه، وعندما أحسّ بهم، أبطأ خطاه ثم توقف والتفت إليهم. تقدّم الأولاد نحوه. عبس بوجوههم، ودقّ الأرض برجله، ما جعلهم يهربون، إلا عدد منهم ظلّوا يحدقون به.

- ماذا تريدون؟

أطلت بنت صغيرة برأسها من وراء صبيّ منهم وقالت:

- ألا تعطينا بعض التمر يا عم؟

ضحك سالم من كلامها، وسرّ بندائها «يا عم».

- لفت نظركم بريق تمري. لكن ماذا ستعطونني به؟

لمعت أسنان صبيّ منهم أسود البشرة، لكنه لم ينطق بكلمة.

تابع سالم سيره، وتقدم إلى الأمام قليلًا، ثم وقف في ظل جدار هناك.

- من منكم ناداني بكلمة «عم»؟

بقي الجميع صامتين، ولم ينطق أحدٌ منهم. لكن فتاة مجعدة الشعر، تراجعت قليلًا إلى الوراء، واختبأت خلف ذلك الصبيّ الأسود البشرة.

- هذه أنت إذًا.

وضع سالم السلة على الأرض.

- أين الشبه بيني وبين «العم»؟.

ظهر الخوف على عيني تلك الفتاة العسليتين، وحاولت أن

تخفي نفسها أكثر. تقدم سالم منها، فبدأت شفتاها ترتجفان. أما الأولاد فتسمروا في أماكنهم من شدة الخوف. استدار سالم والتفت إلى الأولاد الذين كانوا يطلّون برؤوسهم من الزقاق، ثم عاد ونظر إلى الفتاة نظرة توحي بالجدية:

- التمر حلو، أليس كذلك؟ لعله...

لم يكمل سالم كلامه. عاد مسرعًا إلى السلة، حملها وملأ كفّه تمرًا، ثم قال: «أنت أيتها الفتاة المختبئة، تقدمي إلى الأمام لكي أراكِ».

عندما رأى سالم عينَي الفتاة قد ترقرقتا بالدموع، تقدم نحوها وقال: «افتحي فمك لأرى هل لديك أسنان حتى تناديني «يا عم».

فتحت الفتاة فمها وهي خائفة.

-لا أعتقد أن لديك لسانًا أيضًا.

ثم وضع تمرة في فمها، ووضع واحدة أخرى في فمه، وهز برأسه.

- لا! كأنها حلوة!

بعد ذلك تقدم من الأولاد، وطلب إليهم أن يمدُّوا أيديهم، وراح يضع في يد كل واحد منهم حبتين من التمر. لم يكن أحد ليشتري تمره. أما ماجدة فمن أين ستعلم ماذا فعل؟ هذا إذا قالت شيئًا، ولعلها لن تقول.

عندما شاهد الأولاد الذين كانوا يختبئون خلف منعطف

الزقاق كرم بائع التمر المتجول، تدفقت الجرأة في قلوبهم، فلم تمض لحظات، حتى تجمع حوله عدد كبير منهم، وهم يصيحون ويطلبون التمر مجانًا. عندها وضع سالم سلة التمر فوق رأسه، وأراد أن يتركهم ويذهب، لكن الأولاد لم يكفوا أيديهم عن السلة، فكان بعضهم يقفز في الهواء محاولًا التمسك بالسّلة، فيما تمكن آخرون من الإمساك بها، وراحوا يأخذون التمر منها.

- اتركوني!

- أنا ما أخذت تمرًا.

- أستحلفك بالله.

لم يكن واردًا في ذهن سالم أن يقع في هذه الورطة، فنصف سلته أصبح خاليًا، بينما هو عالق لا يستطيع أن يفلت من بين أيديهم، فيخلص نفسه منهم. كان عدد الأولاد يزداد كل لحظة.

- ماذا تفعلون بهذا المسكين؟

ما إن سمع الأولاد صوت ذلك الرجل الذي خرج من داره حتى سكن صراخهم. رجل يرتدي ثوبًا أبيضَ يخرج من باب داره، ويصيح بهم:

- اذهبوا إلى بيوتكم.

- الجميع قد أكلوا التمر، إلا أنا.

ابتعد الأولاد قليلًا. كانوا ينتظرون أن يعود الرجل إلى داره، لينقضّوا مرة أخرى على السلة فيفرغونها.

- من منكم لم يأكل التمر أيضًا؟

تقدم ولد صغير، وراح يتكلم بلسان حلو وهو يطلب التمر، فيما كان بعضهم يبكي. قال الرجل العجوز: «من منكم لم يأكل التمر فليقف صفًا واحدًا في ظل الجدار. أما الذين أكلوا فليذهبوا إلى خارج الظل؛ إلى أشعة الشمس هناك».

اصطفّ جميع الأولاد في ظل الجدار، وبعضهم كان يلوك تمرته بفمه؛ إلا عدد قليل منهم وقفوا في الشمس.

- هذا الصبيّ قد سرق تمرًا، يا ابن مسعود!

هزّ الصبيّ برأسه، وهو يمسح شفتيه بكم يده، وسأل: «أنا؟!».

تقدم الرجل العجوز وألقى نظرة في عينيه، فطأطأ الصبيّ رأسه، لكنه لم يخرج من الصف.

- اليوم أقام لكم فارسيّ حفلًا عظيمًا.

عندما سمع سالم كلمة «فارسي» تذكر قاتل الخليفة، فاضطرب وشعر

بقلق شديد.

تابع ابن مسعود كلامه: «أنا أيضًا أريد أن أشارككم في فرحتكم». ثم طلب من خادمه الذي تبعه أن يأخذ السلة من سالم، ثم أضاف: «لكني أحب أن أعمل كما كان يعمل رسول الله. بداية، فليقف في الأمام من لم يأكل التمر».

توجه الرجل العجوز إلى سالم، وسأله:

- ما اسمك أيها الشاب؟

- سالم، سيدي!

- مولى من أنت؟

- أنا عبد لماجدة زوجة...

- آه، أنت العبد الذي اشترتك زوجة وائل؟ أنا أعرفها. لكن ألا تعتقد أنك تتلف تمر هذه المسكينة؟

ابتلع سالم ريقه بغصّة، وقال:

- لم يشترِ أحد التمر، فأردت أن أحلّي أفواه هؤ...

- أن تفرحهم و..

هز سالم رأسه، لا سيدي!

- ليس هناك مشكلة، أنا سوف أشتري تمرك، وأشتري التمر الذي أكلوه أيضًا.

التفت ابن مسعود إلى خادمه، وطلب منه أن يدخل إلى الدار،

ويأتيه بهميان[[3]](#footnote-3) الدنانير من كوّة في الجدار، ثم تابع حديثه وهو يضع التمر في أيدي الأولاد.

- سأشتري التمر بضعف ثمنه، لكن بشرط.

نظر سالم إلى الرجل وهو مندهش.

- شرطي أن أبقى برفقتك ما لم ينته التمر من السلة.

لم يستطع سالم أن يقول شيئًا من شدّة الفرح، كل ما كان يفعله تحريك جفنيه نزولًا وصعودًا. تناول ابن مسعود بعضًا من التمر، وطلب من الفتاة الصغيرة التي ابتلّ وجهها بالدمع أن تفتح فمها.

رجع الخادم يحمل كيسًا مليئًا بالدنانير، وهو ينظر إلى سيده بدهشة. أما ابن مسعود فكان يمسح حبات التمر، ويعطيها للأولاد، ويطلب إليهم أن يدعوا له وللشاب بائع التمر.

كان صف الأولاد طويلًا ومنحنيًا، حتى امتد إلى منعطف الزقاق.

- لا تفتعلوا جلبة، سيصل التمر إليكم جميعًا.

انتهى الصف، وأخذ الجميع نصيبًا من التمر، وبقي في السلة شيء قليل، فقال ابن مسعود:

- أما الآن فقد وصلت النوبة إليك حتى تحلّي فمك.

ثم التفت إلى جمع من الرجال كانوا قد احتشدوا حوله، ينظرون إلى فعله. قدم إليهم التمر وقال: «لا يظننّ أحدكم أن

هذه الدنانير من بيت المال بما أنني أتولاه في الكوفة». ثم وضع حبة من التمر اليابس في فمه وتابع يقول: «هذه الدنانير ملكي، لذلك عمدت إلى هذه التجارة مع الشاب». بعد ذلك توجه نحو الفتى، وضع كيس النقود في سلته، وقال له: «أراض أنت؟ لم تكن تجارة سيئة».

بقي سالم على حاله لا ينطق بكلمة. كان ينظر فقط إلى الرجل المسنّ.

- أعتقد أنك يجب أن تذهب. أبلغ سلامي إلى أم الفضل.

ثم استدار ومشى. لم يتقدم خطوات عدة حتى رجع، وقال:» الظهر قريب، يمكنك أن تصلي في المسجد إن شئت».

تلألأت عينا سالم فرحًا، ثم تناول كيس الدنانير، ولحق بصاحب بيت مال الكوفة. ما أبعد ما حصل عن ظنه! فالوقت ما زال متأخرًا حتى الغروب، أما التمر فقد بيع بأسرع من كل مرة. وسالم الآن يمكنه أن يشعر برائحة السمك المشوي، وطبخ مائدة لذيذ جدًا.

# **6**

كانت السمكة تقفز داخل السّلة، تحاول أن تثب إلى الخارج، لكن حافة السّلة العالية تمنعها من ذلك. كانت تتلوى وتفتح فمها الأبيض المائل إلى الأرجواني ثم تطبقه، ثم تعود فتضرب بذيلها الكبير السمكات الصغار، وهي تسعى للوصول إلى الماء، لكن كلما تلوّت خمدت حركتها أكثر فأكثر، يظهر ذلك من فلوسها التي تحت خياشيمها؛ كانت تتحرك هبوطًا وصعودًا ثم تهدأ. على الرغم من ذلك، كان سالم يعلم أن السمكة لو توقفت عن الحركة، ما إن يمسّها الماء، وتصبح داخل ماء الفرات البارد، حتى تستعيد حياتها، وتنزلق بين أصابعه مثل السهم، وتغوص في الماء، وتختفي في أعماق النهر المظلمة.

حين هدأت السمكة الكبيرة، حمل سالم السّلة وانطلق. لم يكن يعتقد أن باستطاعته اصطياد أربع سمكات كبيرة وعدد من الأسماك الصغيرة والمتوسطة بهذه السهولة. لكنه الآن في طريق العودة إلى بيت ماجدة بيد مليئة، ولم يحن وقت الظهر بعد.

كان يسير بين حقول القصب. من هناك أصبح الطريق أبعد؛ لكنه يملك الوقت الكافي، ويمكنه أن يستمتع بأصوات الطيور.

كانت أعواد القصب تتمايل بلطف، فتذكره بالنهر الجاري

بالقرب من بساتين النخيل في النهروان؛ حيث كان يذهب إليها في صغره، ويلاحق الفراشات بين أعواد القصب ليصطادها؛ وكلّما حاول اصطياد واحدة منها فشل في ذلك، وكأن الفراشة تمتلك عيونًا خلف رأسها، فما يكاد يصل إليها حتى تفتح أجنحتها البيضاء والملونة، وتحط على قصبات في الجهة الأخرى. هذا ما كان يفعله في الصبا في موسم جني التمور. لكنه الآن هنا، يسير بين أعواد القصب، ويتذكر تلك الأيام، وينظر إلى العصافير التي تحطّ على القصبات، وهي تغرّد مع صفير الرّيح. كان يشعر أن العصافير فرحة أيضًا.

لقد كلّفته ماجدة هذا الصباح بصيد السمك، إذ لم يكن لديهم المال ليهيئوا الطعام للضيوف. تقول ماجدة إنّ مائدة نهر الفرات مبسوطة للجميع. الفرات كريم ويمنح كل إنسان رزقه بقدر. الأمر يحتاج فقط إلى المهارة والفطنة، وأنت يا سالم لا تنقصك هذه الأمور؛ كلمات كانت كافية لإدخال السرور إلى قلب سالم.

من المقرر أن يأتي خاطب لمائدة، لذلك تريد ماجدة أن تكون

الأمور على أفضل حال في غياب زوجها. لهذا السبب أرسلت سالمًا في الصباح الباكر، بعد صلاة الفجر، إلى نهر الفرات. لم يكن نهر الفرات العظيم نفسه، بل فرع منه كان المزارعون يروون منه مزارع نخيلهم.

وضع سالم السّلة على كتفه، وراح ينشد الأشعار التي تعلمها في صغره، وهو يتقدم بخطوات بطيئة. كان مسرورًا، لكن من جهة أخرى كان حزينًا؛ لقد نشأ منذ صغره مع مائدة، وكبرا معًا. كان يشعر في أعماقه أنه يحبها، فرعشات قلبه كانت تخبره بذلك حينما يراها وهي تدخل غرفته، خصوصًا، عندما كانت عينا تلك الفتاة العربية تلمعان، وتظهر تلك «الغمازة» على خديها. أما هو فكان حين يراها يجهد نفسه حتى لا يتغير لون وجهه، ولا يرتعش صوته إذا كلمها، لكن صوته كان يرتعش قليلًا عندما يتحادثان. مع ذلك، كان يخفض رأسه إذا التقت عيونهما، فهو يعلم جيدًا أن هذا الأمر غير ممكن على الإطلاق، فلا العربي يزوج ابنته لرجل أعجمي، ولا الأعجمي يستطيع أن يخطب فتاة عربية. هذا القانون غير المدون اتخذ شكله في سلوك العرب، وأصبح قانونًا في حياتهم. كان سالم يعلم أن ماجدة تحبه مثل ولدها، لكنه في نظر جيرانها وفي نظر العرب أيضا أقل شأنًا، وأوضع نسبًا منهم، وهذا الأمر يبدو مفهومًا من أسلوب كلامهم، وواضح أيضًا في نظراتهم؛ حتى أن والي الخليفة كان قد أصدر أمرًا يقول فيه: إذا كان الأعجمي على ظهر فرسه ورأى أحدًا من العرب، ولو كان طفلًا، وجب عليه

أن ينزل من على ظهر دابته، وأن يفسح له الطريق حتى يعبر. كذلك، يجب على الفارسي أن يبدأ العربي بالسلام أولًا، فإن رغب العربي رد السلام. وهذا ما كان يحزن سالمًا ويؤلمه، لأنه لا فرق بينه وبين العرب، لا بل كان يتقن عمله أكثر منهم؛ فالبيت الذي لم يستطع المسنّ العجوز بناءه، وسقط جداره على الأرض، بناه هو نفسه لبنةً فوق لبنة، وكان حينها لم يزل في أول شبابه، وأصبح البيت على لسان كل فرد في حي بني أسد. كذلك استطاع أن يتعلم القراءة والكتابة، حيث كان يذهب إلى أصحابه [من بلاده] سرًا، ويتعلم منهم. في حين أن العرب لم يكن لديهم عمل سوى المشيِ في الأزقة بتفاخر والسيوف متدلية من أعناقهم.

تنهد سالم، ثم توقف للحظات يتأمل أعواد القصب وهي تتمايل بهدوء، كأنها ترقص على نغمة الريح. كانت تشبه إلى حد بعيد حركة «تنورة» مائدة الفضفاضة ذات الثنيات – كان يسمع صوتها وهي تناديه، لكنه لم يستطع العودة والنظر إليها-. وقف ينصت إلى أصوات العصافير الآتية من بعيد. أطبق عينيه. كان صوت شدوها مثل المروج الخضراء المخملية التي تداعبها الريح، فتتمايل معها كيفما هبت. على مسافة قريبة منه علت نغمة عصفور. مدّ عنقه ليرى. إنها أنثى عصفور تحط على عود قصب طويل، تطلق من فمها نغمات متناسقة، وهي ترقّص ذيلها الأخضر المتداخل مع الأبيض، ثم يرتفع صوت سقسقة من الناحية الأخرى من القصب. بدا الأمر كأنه سباق بين عصفورين في هذا اليوم الربيعي. بعد لحظة ظهر عصفور

رماديّ من الجهة الأخرى، حلق عاليًا في الجوّ، ثم هبط واقترب، وراح يدور حول العصفورة الملونة. لكن العصفورة أغمضت عينيها وعلا شدوها.

- افتحي عينيك، فصديقك قد ظهر.

كانت أنثى العصفور الجميلة تغرد من دون اعتناء. فكر في نفسه. هذا يعني أن الطيور أيضًا لديها غرور! كان الشاب غارقًا في مشاهدة سلوك هذين العصفورين. كان العصفور الرمادي يصفق بجناحيه بقوة، ويحلق عاليًا، ثم يعود ويقترب، ثم يرجع، والأنثى غير مهتمة. لم تكن تعتني بما يفعل. اقترب العصفور وأراد أن يحط على عود من القصب، وإذ بهما يطيران على صوت جري الخيول؛ فصوت وقع حوافرها قد أخافهما، فحلّقا بعيدًا وسط ذلك السكون وغابا عن الأنظار.

فضولية سالم دفعته كي يلاحق الفارسين بنظراته، وهما يعبران الطريق القريب من حقول القصب بسرعة، قادمين من جهة الكوفة. عرف واحدًا منهما، عرفه من حصانه «الأبلق». الكوفة كلها تعرف شهابًا بتلك القوائم الرشيقة والعنق الجميل. كانت شهرته بسبب فارسه جندب الأزدي الذي قتل الساحر اليهودي في مسجد الكوفة. قتله في حضور الوالي. لقد ضرب عنقه وهو يقول: المسجد ليس مكانًا للسحر والشعوذة. لكن الوالي أمر بحبسه، حتى أرسل الخليفة رسولًا إلى ابن أخيه الوليد[[4]](#footnote-4) يأمره بأن يطلق سراحه. اختفى ذيل شهاب الأبيض

بين منعطفات الطريق الضيقة، ولف السكون حقول القصب من جديد. نقل سالم سلة السمك إلى يده الأخرى ومشى، لكن فكره ذهب مع جوادَي الفارسين- من المؤكد أن جندبًا فعل شيئًا حتى خرج من الكوفة مسرعًا في هذا الوقت من النهار- أسرع الخطى، وعبر طريقًا ضيقًا بين سهول القصب، ومضى باتجاه بساتين النخيل؛ حيث كانت الكوفة تقع في الجهة الأخرى. لم تكن الشمس قد وصلت إلى كبد السماء بعد. لكنه انحرف نحو السوق، ولم يذهب إلى حي بني أسد. كانت البسمة ترتسم على وجهه بين الحين والآخر. ليس عبثًا أنه استطاع أن يملأ سلته من السمك بهذه السرعة. كان فضوليًا، فإذا ما حدث شيء فإنه يدركه بسرعة. تقدم بخطوات سريعة، ومر بجانب الحقول والمزارع التي لم تعقد سنابلها بعد، ثم انحرف نحو الكناسة [[5]](#footnote-5)عند التقاء طريقين، ومشى فوق جسر خشبي ضيّق بُني خصيصًا لعبور المارّة.

كانت الأسوار العالية لدار الإمارة تلوح من بعيد. كل شيء بدا هادئًا. كان سالم يصغي لعلّه يسمع صياحًا أو صراخًا، لكن السكون كان يعمّ المكان. اقترب من ميدان الكناسة. في الجهة الأخرى من الميدان، اجتمع عدد من الرجال أمام المسجد يتحدثون. ما إن وقع نظر الرجال عليه حتى خفضوا أصواتهم. حاول أن يتقدم نحوهم بهدوء، علّه يفهم شيئًا مما يقولون؛ لكن أصواتهم كانت أشبه بالهمس. دفعته الفضولية

أكثر. كان واضحًا أن العرب لا يحبون أن يطّلع غير العرب على حديثهم. غير أنه تبسم وابتعد مسرعًا، وهو يقول في نفسه: «ماذا تعتقدون؟ فكل الأخبار عندي». أكمل سالم طريقه إلى سوق السمك - كان السوق قد أُعيد بناؤه مؤخرًا، وفُرش رصيفه بالرمل الخشن والحصى حتى لا توحل أرضه- توجه مباشرة إلى الرجل الديلمي «بائع السمك». لقد مضت سنوات عديدة ولم تزل تجارتهما قائمة؛ سالم يبيعه التمر، والرجل الديلمي يعطيه السمك. كان الديلمي قد تقدم في السن؛ لقد غزا الشيب لحيته، وبان مفرق رأسه خاليًا من الشعر أكثر من ذي قبل. كانوا يدعونه باسم «رستم»، أما العرب فينادونه «أبو الفوارس».

- لقد جئت في الوقت المناسب. كم كنتُ أشتهي التمر!

ضحك سالم وأنزل السلة، فلما رأى رستم السمك الطازج عبس وقطب حاجبيه.

- لقد أبدلت عملك؟ أتريد أن تكسدَ تجارتي؟

رفع سالم كتفيه إلى الأعلى، جمع شفتيه وقال: «صيد جيد، أليس كذلك؟»

نظر رستم مرة أخرى داخل السلة، ثم جمع حاجبيه وقال: «في جميع الأحوال أنا لست بمشترٍ».

- وأنا لست بائعًا.

لم يقل رستم شيئًا؛ بل أشار برأسه. ماذا يعني هذا العمل؟

- لدي سؤال تجيب عنه، فأقول لك أحجيتي.

ملأ رستم شفتيه هواء، ثم نفخه دفعة واحدة. كانت هذه عادته إذا تعجب:

- ماذا جرى؟

- قبل ساعة مضت، رأيت شيئًا عجبًا.

أشار رستم إلى سالم أن يدخل إلى الدكان. قال سالم بعد أن رأى الديلمي ينتظر: «رأيت الفارس جندبًا يرافقه رجل غريب. رأيتهما ملثّمين، وقد بَدَوا كأنهما يفران من شيء ما. لقد عرفت جندبًا من فرسه شهاب».

علت قهقهة رستم، واهتز بطنه الكبير أمامه.

- أنت لم تسمع صوت طبل الفضيحة، بل رأيته.

لم يفهم سالم شيئًا مما قال. ارتسمت عقدة على حاجبيه؛ ماذا يعني؟: «جندب رجل مؤمن وجيد!»

- جندب رجل مستقيم يا ولدي! وجندب هو الضارب على طبل الفضيحة.

- تكلم بوضوح أكثر.

- تعال هنا، إلى هذه الزاوية حتى لا يسمعنا أحد.

علّق سالم سلته بعمود صغير من الخشب أمام الدكان، ودخل إلى حيث كان الرجل الديلمي يجلس وفي يده سمكة كبيرة يعمل على تنظيفها.

قال رستم وهو يتلفت بطرفه نحو الخارج: «لقد فضح الوليد شارب الخمر».

- وهل أخو خليفة المسلمين يشرب الخمر؟

هز رستم رأسه، وتناول سمكة أخرى... في هذه الأثناء مر رجل عربي برفقة عبيده، ألقى نظرة داخل الدكان، ثم مدّ رأسه نحو سلة سالم ومضى في طريقه.

- ماذا جرى؟ لقد رأيت بعض رجال العرب مجتمعين أمام المسجد، ولما مررت بالقرب منهم خفضوا أصواتهم، كأنهم قد رأوا جنّيًا!

- يجب أن يفعلوا ذلك؟

- رستم! تكلم. ما الذي جرى؟

- يعني أنك لم تسمع شيئًا على الإطلاق؟

توجه سالم نحو السلة وهو يقول: «ذهبت إلى صيد السمك قبل شروق الشمس».

- لقد فعلت ذلك كي تكسَدَ تجارتي، أنا المسكين! ليس عندي كلام أقوله لك.

- ماذا تقول يا رجل! الليلة عقد قران ابنة ماجدة.

راح رستم يمازح سالمًا ويضحك بينما ينظف السمك.

- مبارك! لكن أين خاتم عقد قرانك؟ لماذا لم تقل لي شيئًا حتى الآن؟ أيها المتحاذق!

احمرت وجنتا سالم قليلًا. ابتلع ريقه ولم ينطق بكلمة.

- حقًّا لقد نسيت أن العرب لا يزوجون بناتهم للأعاجم.

قال الديلمي تلك الجملة، ثم وضع سمكة فوق أخرى، وأضاف:

«هذا أفضل! أليس لدينا نحن فتيات عفيفات وجميلات؟».

ذهب سالم نحو سلّته وقال:

- ألا تريد أن تتكلم؟

- هؤلاء دينهم يقول شيئًا، بينما عملهم يقول شيئًا آخر. «إذا كان كبير القرية يقول شيئًا ويفعل شيئًا فـ..».

- لقد أوجعت قلبي يا رستم!

- هذا لأنك احترفت صنعتي يا سالم! أنت شاب جيد لكن لا أعلم لماذا صرت عبدًا مطيعًا لامرأة عربية.

هز سالم رأسه، وأجابه على مضض: «ماجدة امرأة جيدة، لقد اعتنت بي مثل أمي».

- والآن تريد أن تزوج ابنتها لرجل عربي!

- مائدة مثل أختي، هذا أولًا، والأمر الثاني: هذه عاداتهم وتقاليدهم.

- وأنت! لماذا لا تتزوج من امرأة أعجميّة؟ لقد تجاوزت الثلاثين من العمر.

حين رأى رستم اضطراب سالم وانزعاجه، خفض صوته الغليظ، وقال: «كان يجب أن يحدث ذلك، لقد أظهر أخ الخليفة الفساد على الملأ، وفضح أمره. لا أدري كيف يسلم الخليفة الكوفة لرجل ينادمه مسيحي. جميع الناس يعلمون خبر الوليد مع زبيد المسيحي، ويعلمون أيضًا أنهم اتخذوا في حي بني الأشعث دارًا، يقيمون فيها مجالس اللهو وشرب الخمر. كان

الوليد يتخذه سرًا، يظن أن لا أحد يعلم به. على قولنا نحن الديلميين: مثل طائر الحجل حين يدخل رأسه في الثلج، يظن أن لا أحد يراه. كان الوالي يتصرف كأن الناس لا ترى شيئًا، لكن الزمام أفلت من يده، وسعت به قدمه، حتى وقع، من حيث لا يدري، في الحفرة التي حفرها بنفسه».

نهض سالم. حمل سلته وهو منزعج. أراد أن ينصرف؛ لكن الرجل الديلمي أمسك ذراعه، وقال له: «لم تكن على عجلة من أمرك إلى هذا الحد. تعال. خذ بطرف هذا التخت [اللوح] حتى نضعه أمام الدكان، فبعد ساعة يبدأ المشترون بالظهور».

انحنى رستم فوق تخت السمك، ومال برأسه الأصلع نحو سالم قائلًا: «لقد حضر والي الكوفة إلى المسجد، وقام في المحراب يصلي بالناس صلاة الصبح جماعة، فصلى بهم أربع ركعات بدلًا من ركعتين[[6]](#footnote-6)، وتقيّأ في المحراب. كانت رائحة الخمر تفوح من فمه؛ لقد كان طوال الليل يعاقر الخمر، إلى حد لم يتمكن أن يحفظ نفسه». ثم تابع رستم بصوت منخفض: «حين بدأ الناس يلعنون الوليد ويتفلون في وجهه، استفاد جندب ومعه أبو مورع من الفرصة، فأقدم جندب على سلبه خاتم الإمارة، وخرجا مسرعين من الكوفة، وتوجها إلى عثمان في المدينة ليشهدا عليه، ويعطياه علامة الخلافة».

ما إن أتمّ رستم كلامه، حتى تنفس الصعداء. كأنه قد أزاح عن صدره، بصرخة واحدة، ذلك السر الذي كان يثقله.

- لكن قلبي يحدثني أن الخليفة لن يقدم على ما يسيء الوليد. في النهاية، سيخلعه من ولاية الكوفة، ويأخذه إلى حضنه. ولعل الأمر يكون كما في المرّة السابقة؛ يحضرون عددًا من الشهود، فيشهدون أن الوليد ليس مذنبًا، ويضعون جندبًا في السجن مرة أخرى.

- لقد بلغ السيل الزبى!

- مهما يكن، فإن الأمر يدور بينهم، ولا يرتبط بنا إطلاقًا.

بعد ذلك، قال رستم وهو يرتب السمكات حتى تلفت نظر المشترين: «أنا حاضر كي أشتري منك سمكاتك، على الرغم من أني أملك الكثير منها».

ضحك سالم، وقال: «ماذا؟».

- لقد نسيت أنك تريد أن تأخذ السمك لأجل طعام العشاء لمنافسك. طبعًا منافس قلبك.

ثم أخذ سمكة ووضعها في سلة سالم، وأضاف: «هذه لأنك ساعدتني».

أمسك سالم بذيل السمكة. أراد أن يرجعها، ويقول شيئًا؛ لكن الرجل الديلمي قاطعه بحركة قام بها؛ إذ نفخ شدقيه العريضين، وأغمض عينيه، فصمت سالم ولم يتكلم، ثم مضى في طريقه.

# **7**

- سالم! ما زلت جالسًا؟ ألا تعلم أن الخليفة الجديد في طريقه إلى الكوفة؟

لم يتحرك سالم.

الجميع يريدون أن يروا صهر الرسول من قريب. لماذا لا تتحرك يا سالم؟

رفع سالم كتفيه عاليًا وهو يبتسم، ثم نهض وتوجه نحو سلة التمر التي اشتراها مؤخرًا. أخذ السلة ووضعها على كرسي تحت أشعة الشمس الساطعة عند عتبة دكانه، وبدأ ينتقي التمر اليابس والمسحوق. كان يفعل ذلك باستمرار. لقد علمه والده أن التمر يجب أن يكون نظيفًا، وأن رفع التمر الفاسد واليابس يعطيه منظرًا أفضل. من جهة أخرى، فإن المشتري عندما يأخذ التمر إلى بيته لا يشعر بأنه قد غُبن، وهذا يجعله راغبًا بالعودة مرة أخرى، ليشتري من المكان نفسه؛ لذلك كان تمر سالم مشهورًا، وكان الناس يقصدون دكانه أكثر مما يقصدون غيره، مع أن جميع التمور تُجنى من بساتين نخل الكوفة، ولا يختلف بعضها عن بعضها الأخر بشيء.

كان سالم شارد الفكر، ينقّي بضاعته؛ ليس معلومًا إن كان

الخليفة الجديد يختلف عن الذي سبقه. ألم يكن الخليفة السابق صهر الرسول!؟ كانوا يسمونه «ذا النورين»، وعاش مع ابنتين من

بنات الرسول؛ لكن في النهاية، هجم الناس على داره، وسفكوا دمه بسبب تساهله وأعماله. والآن يأتي خليفة آخر لا يعرف عنه شيئًا، سوى ما كان يسمعه من أتباعه ومحبيه. كان يرتب سلال التمر، وكلمة «الرسول» لا تفارق ذهنه.

أطل برأسه من الدكان، ونظر إلى جهة سوق التمر فرآه خاليًا؛ لقد ترك معظم الناس دكاكينهم وذهبوا. لم يبق أحد إلا هو وعدد قليل كانوا يتحضرون للذهاب أيضًا. كان يحدث نفسه: لماذا عليه أن يذهب؟ فالأمر لن يختلف بالنسبة إلينا نحن العجم مع أي شخص يأتي؛ فنحن الشعب الذي يذل ويحقّر، وقد اعتدنا على سلوك العرب، هؤلاء الذين لا يجيزون لغيرهم أن يصلّوا في مساجدهم، أو أن يتشبّهوا بهم في الملبس. لكن هذا الشوق الكبير عند الآخرين أوجد في نفسه شيئًا من الميل والهوى. فمن جهة كان قلبه يحدثه بأن الذهاب لرؤية رجل يأتي لأول مرة إلى الكوفة، بعنوان خليفة المسلمين، أمر مثير، ومن جهة أخرى، كان يشعر بالحقد في أعماق قلبه، ولا يستطيع أن يرضيَ نفسه. فلما رأى أن لا مشتري لديه، والسوق – على كبره- خالٍ حتى من الطير، نهض عن كرسيه وأخذ قطعة من القماش غطى بها سلال التمر، ثم راح يتنقل بهدوء. كان قد سمع كلامًا كثيرًا عن «علي»؛ فبعض الناس يحبونه حتى العشق، ويتحدثون عنه كأنه رسول الله، وبعضهم الآخر كانوا إذا سمعوا باسمه تقطبت وجوههم، كأنهم لا يعرفونه.

كان يشعر في أعماقه بشيء من القلق. ماذا لو أن الذي سمعه

ليس كمثل الذي سيراه، فهو لا يحب أن تتحطم الشخصية التي بناها لعلي في ذهنه. لقد عاش في بيت ماجدة بين العرب من بني أسد، وهؤلاء يجلّون عليًا ويقدرونه، خصوصًا اليمنيّين الذين يسكنون بجوارهم. كانوا مشتاقين لرؤيته، وكأنه نبيّ من الأنبياء. إنه الشخص الذي يُروى عن الرسول وصيّته بأن يكون خليفته من بعده، لكنه جلس في بيته ولم يتكلم لأسباب مجهولة حدثت في المدينة. والآن، بعد خمس وعشرين سنة، يترك المدينة ويأتي إلى الكوفة. لقد تناهى إلى مسامعه أن بعض رجال المدينة قد أثاروا الفتنة، وقدموا سرًا إلى البصرة، وأشعلوا فيها نار الفتنة وسفكوا الدماء، وأعملوا فيها الخراب. كان سالم قلقًا من أن يأتي هؤلاء المتمردون إلى الكوفة، فيحدثون فيها القلاقل والاضطرابات، ويخربون أمن المدينة وسكينتها. لكن الخليفة الجديد كان قد أسرع إلى البصرة وقمع الفتنة فيها، وهو الآن قادم إلى الكوفة، وقد أصبح عند أعتابها.

لقد حدث هذا الأمر قبل عدة أيام، حين رأى القائد الأعلى لجيش الخليفة الجديد يدخل الكوفة طلبًا للجند. لقد تذكر كلامه عندما خاطب الناس في الميدان أمام المسجد. كان كلامه مدويًا؛ جعل سالم يتوقف ويستمع إلى حديثه، بعد أن شاء العبور من دون اهتمام، حتى يصل إلى عمله.

خرج سالم من سوق التمر، وهذه الأفكار تعبر في خاطره. ثم عرّج بسوق السمك، حتى يرى ماذا يقول رستم؛ لكنه لم يجد الرجل. قال في نفسه: «هذا العمل لا يليق بمن هو في مثل عمرك

أيها المسنّ!». لم يكن يرغب بالمرور في سوق الأحذية؛ لكن فضوله دفعه إلى هناك. لم يكن في السوق سوى عدد قليل من العرب، كانوا يجلسون في ظل جدار هناك، يتجاذبون أطراف الحديث. لقد عرفهم سالم. كانوا من كبار السن في الكوفة، يرتدون أثوابًا جديدة وأنيقة، ويضعون في أيديهم خواتم ذات فصوص كبيرة، تبدو واسعة في أصابعهم التي استحالت عظامًا. مرّ سالم من أمامهم، ألقى عليهم التحية، وهم يتحدثون بصوت خافت.

في الناحية الأخرى من السوق، تجمع عدد كبير من الناس أمام دار الإمارة، وقد أحدثوا جلبة وضجيجًا عاليًا. كان بعضهم يحمل سعف النخيل الأخضر. وكان هناك أيضًا عدد من الجنود يحاولون فتح الطريق بإبعاد الناس إلى الخلف، ويطلبون من الأولاد أن يتنحوا جانبًا. احتشد الناس في المكان، فلم يبق سوى طريق ضيق يصل إلى الباب الخشبي الكبير لدار الإمارة الذي بقي مفتوحًا على شكل ممر، ليدخل الخليفة الجديد إلى قصره من دون صعوبة.

أغمض سالم عينيه، وراح يتصور دار الإمارة من الداخل؛ «إنه بناء ضخم، وفيه عدد كبير من الغرف، وصحنه الواسع مليء بأشجار النخيل الباسقة والمتوسطة الطول أيضًا. لقد دخل إليه مرات عدة بصفته كبير باعة التمر في السوق. كان القصر جميلًا، لكنه لم يعجب به كثيرًا».

على مسافة من جموع الناس، وقف سالم قرب جدار منخفض من [الطين]. كان بجانب الجدار كومة من التراب؛ بحيث يمكنه

الوقوف فوقها وأن يرى كل شيء. بالقرب من دار الإمارة أقيم بناء بسيط. يقولون إنّه بيت ابن أخت الخليفة الجديد «جعدة»؛ لم يكن أكثر من كوخ في مقابل قصر الخليفة. وقف سالم فوق تلة التراب. يمكنه بكل سهولة أن يرى من فوق رؤوس الناس، كل من يأتي، وكيف سيصل الخليفة الجديد على فرسه ومعه الحراس والجنود، وكيف سيدخل إلى الميدان بكل عظمة وجلال.

تلاشى ضجيج الناس فجأة، وهدأت الأصوات على صوت «الله أكبر». وصل عدد من الفرسان، فتنحى الناس جانبًا، وفسحوا لهم الطريق أكثر فأكثر. تقدم الحراس وهم يمسكون بأيدي بعضهم بعضًا، ولم يسمحوا لأحد بالاقتراب. في هذه اللحظات كانت أعناق الناس تلتف وتتطاول عاليًا. توجه نظر سالم مع انعطافة الأعناق، فوقع بصره على رجل يركب على بغلة شهباء، ليس على ظهرها سرج. رفع كتفيه عاليًا؛ من هذا الرجل؟ أين الخليفة يا ترى!؟ عندما رأى الفرسان قد ترجلوا، وأحاطوا بالبغلة من كل جانب، قال في نفسه: «أي استقبال هذا!». لكن ما إن فهم أن الرجل الراكب على ظهر البغلة هو الخليفة الجديد، حتى شهق شهقة طويلة، وتقطّب وجهه. ماذا كان يعتقد؟ وماذا يرى الآن؟ لقد سمع أن الخليفة كان في المدينة يعيش في ترف ووفور نعمة، وحياته تشبه حياة الملوك والسلاطين؛ أما الآن فهو لا يصدق ما يرى! الخليفة الجديد بثوبه البسيط يركب على بغلة غطاؤها (رحلها) خرقة قديمة من القماش.

كان باب القصر مفتوحًا، ويستطيع سالم، من حيث يقف، أن

يرى جانبًا منه. لكن الخليفة ما زال واقفًا، ولم يحرك ساكنًا. ما الذي يجري؟ هل حدثت مشكلة؟ ليته يتقدم أكثر ليسمع ما يجري من حديث هناك. كان بعضهم يتحدث بصوت مرتفع، فيما بدا آخرون كأنهم يصرون على شيء ما. أما سائر الناس فقد عمّهم الصمت والسكون، وكانوا يحاولون معرفة ماذا يجري. وحدهم الأطفال الفضوليون كانوا يحدثون جلبة، ويحاولون التقدم إلى الأمام من خلال الفجوات بين أرجل الناس.

أنصت سالم جيدًا. هناك رجل طويل القامة يتحدث؛ يقول إن دار الإمارة قد هيئت للقدوم الميمون لصهر الرسول ليستريح فيها. رفع الخليفة يده عاليًا، وهو راكب على ظهر بغلته، أشار إلى الناس أن يسكتوا. كان صوته مسموعًا وهو يتحدث بصوت عال ونبرة حازمة: «قصر الخبال هذا لا تنزلوه». عندما سمع سالم هذا الكلام، رفع رأسه وتطاول بعنقه، علّه يسمع كلام الخليفة بشكل أفضل، خصوصًا عندما رأى صديقه رستم قد شبك يديه القويتين، ووضعهما أمام الناس ليوقف اندفاعهم... ثم علا صوت أسكتَ جميع الناس.

- أيها الناس! اذهبوا إلى المسجد، إنّ أمير المؤمنين يريد أن يخطب في الناس قبل صلاة الظهر، وإن الخليفة سيتخذ من دار ابن أخته «جعدة» محلًّا لسكنه.

أراد سالم أن يتقدم إلى الأمام؛ لكنه أحسّ بضعف في قدميه، فابتلع ريق فمه. لم يكن قادرًا على التحرك مع وجود ذلك السيل الجارف من الناس الذين اندفعوا جميعهم إلى دار «جعدة»، ما

أحدث جلبة وأصواتًا عالية.

- هذا يعني أن دار الإمارة يجب أن تبقى خالية.

- لماذا لا يريد الخليفة أن ينزل في القصر؟

- افتحوا الطريق... اذهبوا إلى المسجد.

- سوف يأتي أمير المؤمنين إلى المسجد بعد أن يأخذ قسطًا من الراحة.

لم تمضِ لحظات طويلة، حتى شعر سالم بوقع أقدامٍ تمشي نحوه ببطء. وقعت عيناه على نعله الخصيف البالي. توقف هنيهة. كان سالم مضطربًا. خفض بصره؛ لكنه أحس أن الخليفة ينظر إليه. رفع بصره، فوقعت عيناه على عيني الخليفة. أحس برعشة تجتاح جسده كلّه. تسمّرت عيناه في نظرات الخليفة، وشعر بشرارة تخرج من عينيه وتهزه هزًا. احتُبست أنفاسه داخل صدره، وإذ به يعود إلى نفسه على صوت امرأة عجوز.

كانت العجوز تطلب منه أن يتنحّى جانبًا، لتكنس الأرض أمام باب دارها، بينما سالم مسمّر في مكانه. لم يكن يتوقع أن يرى الخليفة من هذا القرب، أو تلتقي عيناه بعينيه. لقد رأى بسمة لطيفة ترتسم على وجه الخليفة، وشعر أنه قد رآه في مكان ما من قبل؛ لعله رآه في حلمه، حتى أن عطره لم يكن غريبًا. لكن أين يا ترى!؟ لم يكن يعرف. بينما كان سالم غارقًا في فكره، يفكر كيف حدث ذلك؛ وإذ به يرجع إلى نفسه على صوت رستم:

- لقد ذهب الجميع، تحرك يا سالم.

دخل شاب يحمل خرجًا إلى دار منزل جعدة. كانت أنفاس سالم محتبسة في صدره، ولم يكن قادرًا على التحرك من مكانه. كانت نظرة الخليفة وعيناه اللامعتان تريد أن تقول شيئًا؛ كأن الخليفة كان يعرفه من قبل. توكّأ سالم على الجدار كي يسترجع طاقته، وتمسك به حتى لا يسحق تحت أقدام الجموع المندفعة بقوة.

- ماذا جرى يا سالم؟

- كان يعرفني.

- من هو؟

- الخليفة.

أمسك رستم ذراعه وقال: «أذهبت مع خيالك!؟ أو لعلك تعرضت لصدمة؟».

أخرج سالم نفَسه دفعة واحدة. إنه شعور غريب. شيء يثقل صدره. يود لو أنه يتحدث إلى شخص ما. غير أن جموع الناس جذبته إليها.

- إن رؤية الخليفة على هذه الحال تصيب الجميع بالرهبة.

- أقسم أنه يعرفني.

- الأفضل أن تستمع إلى كلامه في المسجد، من أن تفكر في أوهامك!

وسط هذا السيل من الناس، اندفع سالم نحو المسجد...

- ما اسمك أيها الشاب؟

كان الخليفة يقف أمام دكانه. لم يمتلك سالم الجرأة على رفع رأسه؛ فنظرة ذلك اليوم أجبرته على التفكير. نظرة جعلته يبحث عن دليل لما أحسّ به. لماذا كان مألوفًا وكأنه يعرفه منذ زمن؟!

- سالم سيدي!

- سالم؟

تقدم الخليفة خطوة إلى الأمام، مرّ بين سلال التمر، وضع قدمه داخل الدكان، ونظر إلى السلال. كانت مرتبة ونظيفة ومصفوفة بشكل جيد -كان الخليفة معتادًا أن يخرج كل يوم قبل صلاة الظهر إلى السوق ليتفقده، ويسأل عن مشاكل الناس، وأحوال التجار - ثم رجع ووقف أمام الباب تحت أشعة الشمس.

لكني سمعت من رسول الله أن اسمك الحقيقي هو «ميثم».

رفع سالم رأسه، ونظر في وجه الخليفة، وقد بدت عليه الدهشة. لم يكن ليصدق ذلك. لقد نسيَ الاسم الذي كان يحمله، ونسيَ أن أمه كانت تناديه «ميثم» لكثرة ما تكرر اسم سالم. في هذه اللحظات أحس أن أمه تناديه من بعيد؛ ميثم.. ميثم..

كلمة ميثم هزت وجوده من الأعماق، وراحت تفور في دمه، وتجري في شرايين جسده؛ فصدى صوت الخليفة كان يعبق في دكانه. لم يكن أحد يعلم بهذا الاسم. لقد ابتاعوه منذ زمن

واختاروا له اسمًا جديدًا. والآن بعد هذه السنين يأتي شخص مجهول؛ هو الخليفة، ليناديه باسمه الحقيقي!

- أحب أن يدعوك الناس باسمك الحقيقي.

اختنق سالم بعبرته، وترقرقت عيناه بالدموع؛ فكلمة ميثم ذكرته بأبيه، ذكرته بأخته الصغيرة حين كانت تتودد إليه وتناديه بلسانها العذب «عزيزي ميثم»، وتطلب منه أن يأخذها معه إلى السوق، حيث والدهما يعمل هناك. كلمة ميثم أخذته إلى أمه الحنونة التي كانت تلاطفه عند الفجر. حملته إلى أيام الطفولة. تسمّر في مكانه، ولم يستطع أن يتحرك. ذكريات الماضي تفجرت في ذهنه دفعة واحدة، وجفّ الريق في حلقه، وبدأت الدموع تتفجر من عينيه بصمت، وتنزل على وجنتيه، ثم تغور في لحيته الكثيفة.

- لماذا البكاء؟ أولست سعيدًا؟

- أنا لا أبكي.

انحنى على يد الخليفة يريد تقبيلها؛ لكن الخليفة رفع يده ووضعها على كتف ميثم.

- أنا وأنت بشر، ولا فرق بيني وبينك.

انفجر ميثم بالبكاء، وجثا على ركبتيه؛ حتى دوّى بكاؤه في أرجاء الدكان، فأمسكه علي بذراعيه، ورفعه إلى الأعلى. كان ميثم بأشد الحاجة إلى أن يضع رأسه على كتف أحد ما، حين أخذه علي وضمه إلى صدره. ارتفع شهيق ميثم بكاءً عاليًا. كانت

كتفاه تهتزان من شدة الشهيق. انفجر قهر كل تلك السنين التي مرت وعذاباتها بكاءً. ربّت علي مرة بعد أخرى على كتفه بلطف، كأنه يلاطفه ويهدّئ من روعه. أحسّ ميثم أن أثقال كل الآلام التي تراكمت في قلبه قد زالت بلحظة واحدة، وخفّت أحمال قهر السنين. غير أنه كان يشعر بالخجل. حاول أن يمسك نفسه عن البكاء، فلم يستطع. بدا كأنه ولد صغير رأى والده بعد سفر طويل، وهو قادم نحوه يناديه باسمه «ميثم». لم يعد ميثم قادرًا على الوقوف، إذ نفدت طاقته، وتلاشت قوته المعهودة، فانهار مرة أخرى، وسقط على الأرض جاثيًا على ركبتيه؛ لكن الخليفة ساعده على النهوض، وأجلسه على الكرسي الذي اعتاد أن يجلس عليه.

- أودّ أن أراك حرًا يا ميثم!

كانت دموع ميثم لا تنفك تجري على خديه؛ حتى تركت خطوطًا على وجهه. في هذه الأثناء، كان بائعو التمر يتجمعون أمام دكانه، وينظرون بتعجب وذهول إلى سلوك الخليفة المفعم باللطف والمحبة مع رجل أعجمي ما زال عبدًا لامرأة عربية؛ كانت قد اشترته بدنانير معدودة.

لم تنقطع دموع ميثم. كان مثل الطفل الذي أضاع أمه؛ بينما راح «علي» يمسح بيده على كتفه ريثما يهدأ. مرت لحظات جعلت ميثمًا يهدأ قليلًا. كان ينظر إلى وجه الخليفة من خلف دموعه التي أسدلت حجابًا على عينيه. تبسم الخليفة بلطف وقال: «يجب أن نذهب إلى حي بني أسد».

ملأ صوت همهمة الناس المجتمعين خارج الدكان السوق:

- أمير المؤمنين «علي» يريد أن يشتري ميثمًا ويحرره.

- لا أعلم من أين يعرفه!

- هذا غير ممكن. لم يمضِ على وجود الخليفة في الكوفة سوى أيام معدودة. كيف ذلك، وهذا عجمي والخليفة عربي؟!

- كان فعله مع ميثم يوحي أنهما يعرفان بعضهما بعضًا منذ زمن. حتى اسمه الحقيقي، لا أعلم من أين كان يعرفه.

- يقول: أحب أن اسمع اسم «ميثم» لا «سالم».

انتشر الخبر في السوق والأرصفة مثل النار في الهشيم. لقد غيّر الخليفة اسم سالم العجمي، وقال إن رسول الله أخبره أن اسمه الحقيقي «ميثم». حين وصل الخبر إلى رستم، لم يكن ليصدق ما سمع. ناول امرأة سوداء البشرة سمكة كبيرة، وخرج من دكانه مسرعًا.

- الثمن سيدي!

- هنيئًا لأسيادك...

لم يدرِ رستم كيف عبر سوق الخضار، ووصل إلى دكان صديقه بأنفاس مضطربة متلاحقة، كان صدره يضيق بها؛ لكنه لم يجد أحدًا هناك.

لقد ذهبوا جميعًا إلى دار ماجدة.

أسرع رستم نحو حيّ بني أسد. كانت جثته الضخمة تتمايل يمينًا وشمالًا؛ حتى أن كل من التقاه لم يقدر أن يتمالك نفسه

فضحك من منظره. «لم يكد الخليفة يصل إلى الكوفة حتى أصبح صديقه الشاب رفيقًا له. كان أصغر خبر في الكوفة يخرج بداية من دكان رستم؛ والآن لا علم له بواقعة كبيرة مثل التي حدثت! وقد حدثت قاب قوسين أو أدنى منه.

عندما وصل رستم، كانت ماجدة تبكي وفي يدها كيس من النقود وهي تقول: «سيدي! لم يكن سالم عبدًا لي، بل كان ولدي. إنه رجل البيت. هو أخ لابنتي مائدة. لقد كنت له أمًا. صحيح هو ليس من العرب؛ لكنه شاب عفيف وطيب».

- أمير المؤمنين يرغب في أن يكون ميثم حُرًّا، يا أمّاه!

- أنا الذي اشتريته؛ لكني لم أنظر إليه يومًا على أنه عبد.

نظر علي إلى العجوز ماجدة نظرة ملؤها اللطف والمحبة، ثم التفت إلى ميثم؛ لم تزل قطرات من الدمع على خديه، وعبد الرحمن ممسك بيده، وعيناه طافحتان بالدموع هو الآخر.

- ما زلتم عائلة واحدة.

كانت ماجدة تصرّ على إرجاع المال، فهي لا تحتاجه مقابل تحرير ميثم؛ لكن صاحب الخليفة قال لها: «هذه النقود ليست ثمنًا لميثم، إنها عون لك من أمير المؤمنين».

# **8**

- أنا أيضًا سآتي إلى النخيلة لأنصر أمير المؤمنين.

- ماذا تقول يا ميثم؟ أتريد أن تترك زوجتك «شيرين» وحيدة في هذه الحال؟

ثم أشار رستم إلى ابنته الواقفة بصمت عند عتبة الباب، وهي تحدق بهما بعينين لامعتين.

- أما أنا فيجب أن...

- إذا علم أمير المؤمنين فسوف يعذرك. صحيح أنه يحبك، وأنه لا طاقة لك على فراقه؛ ولكن انظر إلى زوجتك. فكر بطفلك الذي سيأتي إلى الدنيا قريبًا. إذا ذهبتَ فمن يساعدها إن أصابها مكروه في منتصف الليل «لا سمح الله»، وأنا أيضًا لست موجودًا. أما أمها العجوز، فأنت ترى حالها؛ امرأة ضعيفة، لم يبق منها سوى العظام الرقيقة، تقضي وقتها جالسة في زاوية الغرفة، وليس بيدها حيلة.

كان ميثم يقف تحت ظل النخلة؛ بينما رستم يكلمه، وهو يرتدي لامة حربه، ولم يمنحه الفرصة ليتكلم: «يكفي أن يذهب من كل أسرة شخص واحد. أنا سأحارب نيابة عنك» ثم تقدم إليه وهو يضحك. وضع يده على كتف صهره، وقال: «ما زلت

أملك قدرًا كافيًا من القوة في ساعديّ، وأستطيع أن أضرب رؤوس أعداء مولانا أمير المؤمنين بالصولجان نيابة عنك». لكن ميثمًا لم يكن راضيًا: «كل فرد يجب أن يحارب عن نفسه...».

قطع رستم كلامه، وقال منزعجًا: «أنا المسكين الذي كنت أظن أني أعطيتك ابنةً كالزهرة، حتى تكون سعيدة؛ ولكني لم أكن أعتقد...».

- ماذا تقول يا رجل! أنا أحب شيرين...

- إن كنت تحبها، فكيف يطاوعك قلبك أن تتركها وحيدة وهي في الشهر التاسع، بينما تذهب...

التفت ميثم إلى زوجته. كانت تضع يدها على خصرها، وتنظر إلى الأرض شاردة الفكر. لم تنطق بكلمة. لم تكن شيرين واقفة في مقابله وجهًا لوجه؛ لذا لم يظهر بطنها المنتفخ جيدًا.

كان ميثم قد تحدث بالأمر مع زوجته في الليلة الماضية، وهي لم تقل شيئًا. إنها فرصة جيدة ليكون إلى جانب مولاه أمير المؤمنين؛ غير أن الحياة والزوجة جعلتاه مكبلًا.

- ألم يقل أمير المؤمنين في المسجد «إن من سعى على عياله من حلّه فهو كالمجاهد في سبيل الله»؟

- لكن أنت والد شيرين، ومن الأفضل...

- ما هذا الكلام! شيرين كانت ابنتي في بيتي قبل سنين؛ أما الآن فهي زوجتك. لقد استودعتها أمانة لديك.

كلمة أمانة نُقشت في ذهن ميثم. نظر إلى زوجته الشابة مرة

أخرى؛ إنها الابنة الوحيدة لرستم، ويعلم أن أباها يحبها حبًا جمًا، وهو حاضر أن يفديها بروحه. هو أيضًا يحب شيرين، ولا يقبل أن يصيبها أي أذى، فكيف إذا...

ليس هناك مشكلة، فالأعداء كثر، وسوف تكون في الأيام المقبلة حروب كثيرة. ابقَ هذه المرة، وفي المرة المقبلة أبقى أنا وأهتم بحفيدي.

نزل كلام رستم على قلب ميثم كالماء البارد، فلم يستطع أن يجيبه بشيء. ارتسمت على شفتي شيرين بسمة خجولة، ثّم اختفت في عتمة الغرفة. لم يكن ممكنًا رؤية الغرفة من خلال النور الضعيف؛ لكنه يعلم أن شيرين تقف خلف الباب، وتضع يديها على الجدار، وتضغط على أسنانها من شدة الألم. لقد مضت أيام عدة وهي تشتكي من الألم. لم تكن تستطيع النوم. كانت تقضي الليل وهي تعدّ لحظاته بخطواتها. أما في النهار فكانت تشتكي أحيانًا من ألم شديد، لذلك لم تقدر على إخفاء دموعها.

- هل وافقت؟ قريبًا ستضع شيرين مولودها. من الأفضل أن يكون أبوه بجانبه بدلًا من جده.

تأوه ميثم قائلًا: «سوف يذهب الجميع إلى النخيلة، أما أنا فيجب أن أبقى وأتجول في الدار والسوق. ما هذه العدالة!»

- وهل يرضى أمير المؤمنين أن تترك زوجتك وهي في هذه الحال يا ولدي؟ إنه لفخر عظيم أن يأتي خليفة المسلمين، وسط كل هذه الجموع في السوق، ويجلس على كرسيّك. ألا يكفيك هذا فخرًا. ألا تعتقد أن الآخرين يتمنون أن يصبحوا جلساء أمير

المؤمنين؟ وهؤلاء العرب، ذوو البطون الكبيرة الذين كانوا حتى الأمس القريب لا يرون لك قدرًا، هل يتمنّون لو أنّ لهم لحظة من لحظات حياتك؟

- لأجل ذلك أقول لك ابقَ حتى أذهب أنا.

هز رستم رأسه منزعجًا، ثم مسح بيده على لحيته الطويلة: «لقد عدتَ إلى المربع الأول! أقول لك ليس هناك من ضرع فتقول لي احلبه».

- أنت نفسك...

- لقد تحدثت إلى علي بما فيه الكفاية. الآن جاء دور ساعدي.

وضع ميثم درعه الذي اشتراه مؤخرًا قرب الجدار، وهو يشعر بضيق شديد، ثم ذهب ناحية نافذة الجدار.

- هذا هو العمل الصحيح. الآن أصبحت صهرًا مطيعًا!

لكن ميثمًا كان شارد الفكر؛ ليته لم يتزوج. لم يفهم كيف استطاع رستم أن يقنعه بلسانه الناعم ونظراته الحادة، ويجعله مثل الحمل الوديع. لقد جاءه يومًا وقال له: أما الآن وقد أصبحت حرًا، وها أنت تمتلك دكانًا أيضا، فلماذا لا يكون لديك عائلة؟ حينها سكت ميثم، فأمسك رستم بيده وأخذه إلى داره، ونادى ابنته. عندما رآها خفقَ قلبه و...ولما علم أمير المؤمنين بذلك تبسم أيضًا. غير أنه لم يفكر في هذه اللحظة، حيث سيكون مقيدًا. لم يكن معترضًا على الأمر؛ لكنه صار مقيدًا ولا يمكنه التحرك، ويجب عليه أن يهتم لشأن امرأتين؛ زوجة رستم المقعدة

التي تعاني من صعوبة في النطق، وهي تجرّ نصف جسدها على الأرض بصعوبة، وزوجته شيرين.

توجه رستم إلى الإصطبل. أمسك بزمام حصانه، وأخرجه إلى جانب النخلة. وقف الحصان وراح يحفر الأرض بسنابك حوافره، ثم طوى أذنيه الحادتين إلى الأمام تحت أشعة الشمس؛ كأن صوت حوافره وهي تضرب الأرض قد نزل على رأسه. انحنى رستم وأحكم حزام سرج حصانه جيدًا. لكن الجواد لحس رأسه الأصلع، فضحك ميثم. تفاجأ رستم من فعلة الجواد فوثب من مكانه. صهل الحصان وضحكت شيرين التي كانت تقف خلف النافذة، ثم استدارت بوجهها حتى لا يرى والدها ضحكتها من إطار النافذة؛ لكن صوتها ملأ الدار.

- هذا الحيوان يمازحنا أيضًا.

ابتلع ميثم ضحكته وقال: «لعله يقول...».

- لا حاجة لأن تقول شيئًا على لسان حصاني.

أكمل رستم ترتيب سرج حصانه، ومسح على شعر رقبته الأسود، وتابع حديثه: «أنا أفهم لغة جوادي أفضل منك». ثم أعطى رسن الحصان إلى ميثم، ودخل غرفة زوجته العجوز التي كانت تناديه وهي تنوح وتبكي. بعد لحظات خرج من الغرفة، أخذ الرسن من ميثم، وقال: «لا أريد أن أوصيكم بعد. يجب أن أسرع. لقد مضت أيام والناس يتجمعون في النخيلة». ثم تقدم نحو ميثم، ضمه إلى صدره، وعانقه بشدة، ثم التفت إلى النافذة. كان يعلم أن شيرين تقف خلفها، وتمسح الدموع عن وجهها.

- استودعتك شيرين!

ثم قال بصوت مرتفع: «عزيزتي شيرين! انتبهي إلى والدتك أكثر».

وضع رجله في الركاب، وانطلق مسرعًا. ما إن عبر الممر الضيق، ودخل في الزقاق، حتى سمع خلفه صوت نضيض الماء[[7]](#footnote-7)؛ لكنه لم يلتفت إلى الوراء، ومضى مستويًا فوق صهوة جواده الذي كان يتمايل بهدوء تحت هيكله الضخم كأنه جبل، وهو يبتعد أكثر فأكثر.

كانت شيرين تحدق في الأرض وهي خجلة تنتظر أن يقول ميثم شيئًا. فهي تعتقد أنها مقصرة في عدم ذهاب زوجها إلى الحرب؛ لكن ميثمًا أمسك يدها بصمت، وأدخلها إلى الغرفة بهدوء.

حين غادر رستم، أحسوا بالفراغ الذي تركه في البيت. كان البيت مؤلفًا من غرفتين فقط؛ غرفة له ولزوجته، والغرفة الأخرى لرستم. لقد بنيت الغرفتان وكانت تفصل بينهما مسافة، في حين كان يصل بينهما جدار الإصطبل؛ لأن الإصطبل يقع خلفهما تمامًا. وكانت شجرة النخيل تقع في الوسط بين الغرفتين. ولأنّ رستم لم يكن يرغب بقطع الشجرة؛ لذلك بنوا غرفة ميثم على مسافة منها.

حمل ميثم درعه المتوهج، وعلقه بالجدار إلى جانب الترس.

كان الصمت يملأ المكان. كل شيء في الدار ساكن، إلا صوت بعض طيور الدجاج التي كانت تلاحق الحبوب داخل الإصطبل، وصوت أنين والدة شيرين، الذي كان يسمع بين الحين والآخر. جلس ميثم في الغرفة لبعض الوقت، أحس بضيق في صدره، لم يمض وقت طويل حتى تملّكه شوق شديد. شعر أن لا طاقة له على التحمل، وأمير المؤمنين خارج الكوفة. عندما لا يكون علي في الكوفة، فإنها تفقد بعضًا منها. هذا الشعور كان يتملكه بقوة، ولربما كان يشعر بالوحدة أيضًا. تمامًا كما كان في الزمن الماضي، عندما جاؤوا به إلى هذه الأرض مقيد اليدين. في ذلك الوقت، لم يكن وجود لمدينة أو دار. لم يكن سوى خيام سوداء منتصبة بعضها إلى جانب بعض. بعد ذلك أقيمت عرائش القصب. أما الآن، فقد بنيت البيوت الصغيرة والكبيرة. لقد كبر ميثم مع مدينة الكوفة. في الماضي، عندما أطلقت ماجدة عليه اسم «سالم»، كان يشعر بأن نصف وجوده يجيب فقط إذا ما نادوه بهذا الاسم، وعندما يسمع اسم سالم يحس في أعماقه بضيق وخواء، علمًا أنه كان يعتقد أن اسمه جميل. بقي الأمر كذلك، حتى جاء أمير المؤمنين إلى الكوفة، ووضع قدمه في دكانه، وذكره باسمه الذي نسيه، وكان أبوه يناديه به. عندما نطق علي بهذا الاسم، منحه الحياة مرة أخرى. حينها لم يقدر على التحمل، فانفجر باكيًا من أعماقه، وتذكر ماضيه المنسيّ، وذكرياته الصغيرة والكبيرة؛ حتى ملاطفة أمه، وضحكة أخته التي لا يعلم عنها شيئًا. تذكّر كل شيء،

وأُفعم وجوده بالإحساس دفعة واحدة، فلم يستطع إظهار كل ذلك سوى بالبكاء. حينها طفحت عيناه بالدموع، ولم يتمكن من إمساك نفسه عن الإجهاش بالبكاء. ثم شعر برائحة عطر بدن الخليفة، ولم يكن ليصدق أن يومًا ما سيمد رجل عربي يده ليصافحه؛ لكن الخليفة بنفسه ضمّه إلى صدره، وراح يلاطفه، ويهدّئ من روعه واضطرابه. تمامًا كما يفعل الوالد مع ولده. لم يكن يعلم حينها كيف تجرأ وأظهر ذلك الفعل. بالتأكيد لم تكن جسارة منه، فعلي أمير المؤمنين هو الذي أمسك ذراعه، ورفعه إلى الأعلى. حينئذ كان مثل ولد صغير ضائع، يبحث عن شيء يستند إليه، وفجأة أحس برأسه يتكئ على ذراع مولى المسلمين. أما علي فقد تحمله بأبوة، من دون أدنى غرور أو تكبر. بعد تلك الحادثة أصبحت علاقتهما علاقة المريد والمراد، ولم يعد يطيق بُعد الخليفة وعدم رؤية وجهه؛ فإذا مر يوم ولم يره، فكأنما فقد شيئًا. كان يجلس كل يوم في دكانه، وعيناه مسمّرتان نحو باب السوق، حيث مسجد الكوفة الكبير يقع في ذلك الاتجاه، لأنه يعلم أن عليًا إذا أراد أن يأتي إلى السوق، فإنه سيأتي من جهة المسجد. كانت عادة الخليفة أن يأتي دائمًا إلى السوق، فيجول فيه، ويتحدث إلى التجار، ويسأل عن أحوالهم ويعظهم:

- أيها الناس اتقوا الله، وأوفوا المكيال والميزان. معاشر التجار خذوا الحق وأعطوا الحق تسلموا، لا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره.

كان ميثم يعرف أن أمير المؤمنين في طريقه إلى السوق،

إذ كان يشم رائحة عطره، قبل أن يراه، وقبل أن يسمع صوت وقع قدميه. كان يشعر بوقع خطاه، وهو يمشي ببطء، منتعلًا ذاك الحذاء البسيط المخصوف. حتى لو أن مئة شخص كانوا يسيرون مع أمير المؤمنين، لاستطاع تشخيص خطواته ومتى يرفع علي قدمًا ويضع أخرى. لقد اعتراه هذا الشعور بعد ملاقاته صهر الرسول.

في الأيام الأولى، عندما كان علي يمر من أمام دكانه، كان ميثم يراه، للحظات، أينما نظر. كان يملك حسًا عجيبًا؛ لكنه لم يستطع وصف ذلك الشعور، حتى قال له علي يومًا «هذه العلاقة ذات طرفين» [محبة متبادلة] لكن أين هو، وأين خليفة المسلمين؟ وهو العبد المحرر الذي عطف عليه الخليفة وأحبه. كان إذا رأى أمير المؤمنين نظر إليه بتلك النظرة المختلفة، وطأطأ رأسه. وحين يدخل علي إلى دكانه، يفقد توازنه، ويسرع إلى كرسي قد وضع عليه شيئًا من القماش القديم ليصبح أكثر نعومة، فلا تؤذيه حدبته حين يجلس عليه، فيقدمه ويضعه في مكان مناسب حتى يستطيع الآخرون رؤية وجه صهر النبيّ، ويسمعوا حديثه. بعد ذلك كان يدعوه بإطراء ليتناول من التمر الموضوع جانبًا، فيضحك علي ويقول له: «لا فرق بيني وبين سائر الناس والمشترين، سوى أن حملي أثقل وتكليفي أكبر». بعد ساعة من الوقت كان أصحاب علي يدركون أن عليهم أن يذهبوا، ويتركوه وحده مع ذلك الشاب الفارسي. كان ميثم يعشق تلك الكلمات التي تخرج من فم علي، بينما أمير المؤمنين يحدثه بكلام

يصعب تصديقه؛ يحدثه عن أشياء حدثت في الماضي البعيد، إلى حوادث ستقع في الآتي من الأيام. كان يظهر له أشياء يهتز لها بدن ميثم؛ فكان يحدث أن يمرّ أحدهم من أمام الدكان فيخبره الإمام بما سيفعله هذا الشخص في المستقبل؛ أشخاص لم يكن ميثم ليتقبّل أنهم يقدمون على أعمال خطيرة كهذه. لكن عندما كان أمير المؤمنين يرى أن حديثه قد حير الشاب الفارسي، وجعله مضطربًا، عندئذٍ يغير حديثه، ويسأله عن أصناف التمور وأسمائها.

- سيدي! هذا النوع من التمر اسمه «برني»، ونحن العجم نقول له «برنامك». وهذا التمر الذهبي يقال له «المشان». وهذا عند العرب «أم حرذان».

ثم يضحك ميثم ويتابع «لست أعلم ما الشيء المشترك بيننا وبين الفئران، فنحن البشر نحب التمر، والفئران تحبه أيضًا».

ثم يقدم سلة في قعرها قبضة من التمر الجاف، ويتابع حديثه: «هذا أيضًا تمر يدعى السابري، إنه أبيض ولذيذ؛ عيبه أنه سمج إلى حد ما ويلتصق بالأسنان».

ثم يتناول السلة التي دعاه بداية ليأكل منها، من تحت أشعة الشمس، فتمرها من أجود التمور، وحباتها كبيرة، ولونها أحمر يميل إلى الزرقة، تلمع مثل الياقوت.

- مولاي! هذا النوع لا كلام عليه، حلو وطيب، ويذوب في الفم مثل الزبدة، وفيه شفاء مثل العسل. هذا في لغتنا نسميه «نرسيان»، لكن لا أعلم ماذا يسميه أهل هذه المنطقة.

وحين كان عليّ يمسك بيده، كان ميثم يعلم أن موعد صلاة الظهر قد اقترب، عندها يحني رأسه إلى الأرض احترامًا، ولا يدري ماذا يقول من فرط الشوق. ثم ينهض أمير المؤمنين ويسير بهدوء مبتعدًا عن الدكان. أما ميثم فيتابعه بنظراته، وهو متوجه برفق ووقار نحو الضوء، حيث ينتهي السوق. وما إن تمضي لحظات حتى يمتلأ دكانه بالناس، يحدوهم الشوق لمعرفة «ما كان يريد منه الخليفة، وماذا قال له». كانوا يودّون سماع كلام الخليفة، خصوصًا، بائعو التمر الأعاجم، والموالين الآخرين الذين تغيّرت أحوالهم مع قدوم الخليفة الجديد. لقد اختلفت أوضاعهم «كاختلاف الأرض عن السماء»؛ فلم يعد أحد

ينظر إليهم بازدراء واستخفاف. لقد قال علي خليفة المسلمين أن لا فرق بينه وبين خادمه، فكيف مع الآخرين، وهم جميعًا أبناء آدم وحواء؛ متساوون ولا فرق بينهم. منذ اليوم الأول ساوى بين الجميع في قسمة بيت المال، ولم يفرق في العطاء. وعندما اعترض بعض كبار العرب، وقف على مرتقى أمام بيت المال وقال: «لا فرق بين عربي وعجمي ولا بين أبيض وأسود»، ثم قال: «الجميع لهم الحق نفسه وبالتساوي». ولو أن الخليفة أعطاهم أقل من ذلك لما اعترضوا؛ فقوله «لا فرق بين الناس» كان بالنسبة إليهم كافيًا. ناهيك عن أن الخليفة بدل أن يجلس مع الأشراف من العرب - كما كان يفعل الخلفاء السابقون- يأتي إلى دكان صغيرة لشاب غير عربيّ، ويجلس على كرسيه

ويحدثه. وأحيانًا يجتمع الناس فيكلّمهم ويتحدث إليهم. كان احتجاج الأعيان والسادة المليء بالكنايات يزعجهم:

- لقد وصلت الحال بنا، ونحن القوم الذين اختارنا الله، لأن يجلس الخليفة على كرسي رجل أعجمي.

- الأسوأ من ذلك أنه يجلس على كرسيه، بينما يرسله لينجز أعمالًا هامة.

- هل يعني ذلك أن العربي الذي نزل كلام الله في بيته، يساوي الإنسان الذي ولد من أب كان يعبد النار؟

- أنا قلق من هذه الحال. فإذا بقيت الأمور تسير على هذا النحو، فلن يطول الأمر حتى نرى هؤلاء الأعاجم، الذي لا أصل لهم ولا نسب، يمتطون ظهورنا.

- في الأساس، لماذا لا يسير علي على سنة الخلفاء السابقين؟

- ها ها ها! ألم تسمعوا مواعظه التي يرددها على مسامعنا ليلًا نهارًا؟

تابع الرجل ذو البطن الكبير كلامه وهو يتحدث بحقد وكراهية:

- يريد أن يعمل بسنة رسول الله، وبكتاب الله. كتاب الله فيه آيات كثيرة معطلة؛ إنها كثيرة إلى حد أنه لا يستطيع الوصول إليها جميعًا، يا أبا زائد!

- سمعت أنه يقول: لا فرق بيني وبين خادمي، وأنه لا يضع على سفرة طعامه سوى لون واحد من الطعام. إذا كان الأمر كذلك، فلأجل من خلق الله كل هذا الطعام الحلال والطيب؟

لأجل شخص يعبد النار، أو...

- لا. ليس هذا هو النهج ولا نهج الخلفاء السابقين. برأيي يجب أن يتعامل مع كل إنسان بحسب شأنه ومنزلته.

- يقول إنّه يريد أن يعيش مثل أفقر إنسان في مملكته.

- هذا ينقضي. فليفعل علي ما بدا له.

- ماذا تقول أبا زائد! حتى ينقضي هذا، فلن تبقى أنت ولا أنا. على كل حال، أنا قلت: يجب أن نفعل شيئًا. إذا استمر هؤلاء المشردون الأعاجم في الحصول على القوة بهذه الصورة، ففي النهاية ستحل الكارثة علينا، وسيكونون هم السبب في ذلك.

- لا أعتقد أن ذلك اليوم سيأتي. فعن قريب سوف تنقلب الأمور، وسوف نضع الأَعنّة في أعناق هؤلاء الحُمر الوحشية البوادن[[8]](#footnote-8)، ونحزمها بشدة أكثر من ذي قبل. عندها سنجرهم من أعناقهم بقوة، بحيث يتمنون الموت.

كان العبيد والخدم يخبرون ميثمًا بأحاديث أسيادهم؛ فيضحك ميثم ويقول: «أمير المؤمنين يعلم كل ذلك، ولا يخفى عليه شيء. إنه يعلم ما يقول كل شخص منهم، وماذا يدور في خلده حتى لو كان في ركن بيته».

وقف ميثم عند عتبة السوق. لم تطاوعه قدماه على السير باتجاه دكانه. بينما هو كذلك، إذا بفارس يعبر مسرعًا، وعليه مدرعة براقة، وفي يده تخفق راية بيضاء. توجه إلى المسجد. لم تمض

لحظات حتى صدح صوته قائلًا: «يا أهل الكوفة! قريبًا سيصدر أمير المؤمنين أمر التحرك. غدًا ستُجمع الخيام من النخيلة، وعند الفجر ننطلق نحو الشام. أيها الناس! انتبهوا، من بقي منكم وأراد الالتحاق بأمير المؤمنين، ومرافقته في الحرب، فالآن وقته؛ فليلبس درعه، وليحمل سيفه، وليتجهز للحرب. يا أهل الكوفة! يا من ترغبون في النصرة، لقد حان الوقت كي تجعلوا صدوركم دروعًا، وأرجلكم أوتادًا، وأن تثبتوا، حتى نتوجه جميعًا إلى الشام، ونسحق رأس الأفعى؛ ابن أبي سفيان، ونزيل وصمة العار هذه من على وجه الأرض».

- يا أهل الكوفة! يا جنود الإسلام! يا من تفدون عليًا بأرواحكم. أيها الناس، يا من لا تزال قلوبكم متعلقة بالدور والبنين! لم يبق من فرصة أخرى. يا من رهنتم قلوبكم لعلي! ألم يحن الوقت كي تمتشقوا سيوفكم من أغمدتها لتكون مع سيف ذي الفقار، فتخضع أهل الكذب والخداع؟

كانت كلمات مالك الأشتر تهوي على ميثم كالمطرقة، بينما هو حائر لا يدري ماذا يفعل. فمن جهة كان يتحرق من الشوق ليكون مع صهر النبي في تلك الحرب، ومن جهة أخرى، كانت رعاية المرأتين بعهدته؛ تلكما المرأتان اللتان لا تعرفان أحدًا، وهو

أعطى عهدًا بأن يعتني بهما. ذلك العهد الذي أعطاه لرستم كان يمزقه من الداخل. اختنق ميثم بعبرته، ولم يقدر على البكاء. كان يقبض على يديه، ويتمنى لو يضرب الجدار برأسه.

بعدما أنهى مالك الأشتر كلامه، غادر ميثم عتبة السوق عائدًا، ثم انحرف بطريقه، والحيرة تأخذ منه مأخذًا؛ لكنه لا يدري أين يذهب. فلا دكانه تُسكن حيرته وتشتّته، ولا داره أيضًا، فكلاهما مثل الأفعى، كأنهما يريدان ابتلاعه. ماذا يمكنه أن يفعل؟ وأين يجب أن يذهب؟. سار نحو المسجد ببطء. كانت قدماه تخطان الأرض، وتدوسان على الرمال الحمراء والملونة، وهو يحاول أن يستسلم لصوت الحصى الناعمة، فلا يريد أن يسمع إلا صوتها. بدا صحن المسجد الكبير خاليًا يلفّه السكون. لم ير أحدًا هناك. تقدم أكثر حتى وصل إلى المكان الذي لطالما وقف فيه أمير المؤمنين للصلاة. فحتى في الليالي التي كان يخرج فيها ميثم برفقة علي إلى بساتين النخيل - تلك الليالي التي كانا يقضيانها معًا حتى السحر، يخطّان الأرض بأرجلهما، وعلي يحدثه ويجيب عن أسئلته- كانا يرجعان عند الفجر إلى المسجد، حيث يقف علي للصلاة. تأوه ميثم بحرارة. لا شيء يمكن أن يسكن قلبه سوى الصلاة. كانت عيناه تطفحان بالدموع. كيف يستطيع أن يكمل حياته إذا لم يعد أمير المؤمنين من هذه الحرب حيًّا.

الله أكبر...

# **9**

كان صوت صراخ شيرين يخرج من بين أسنانها، فيلفّ العتمة، ويكسر صمت ذلك الليل المهيب. كان ميثم يعلم أن زوجته الشابة تضع قطعة قماش في فمها، حتى لا يسمع صوتها أحد. صراخ شيرين جعله يرتجف، ويشعر بقلق شديد في برد ذلك الخريف اللاسع. فالليل قد انتصف، وميثم لا يدري إلى من يلتجئ. أما والدة شيرين التي لا تستطيع التحرك، فكانت تحاول بغصّة أن تقول شيئًا؛ غير أن كلماتها لم تكن تُسمع بوضوح، إذ بدا صوتها مضطربًا وقد اعتراه قلق شديد.

أمسكت شيرين ذراع زوجها، فكانت تضغط عليه بأظفارها الحادة بقوة، ما جعله يدرك شدة معاناتها، ويدرك كم هي تتألم! أحيانًا، عندما كان الألم يشتد عليها، وتشعر كأنه أفعى تتلوى داخل عظامها، تترك زوجها، وتذهب ناحية الجدار، فكانت تدخل رأسها في كوة فيه، وتقبض بأسنانها على وسادة كانت في تلك الكوّة، ثم تعود بعد أن يهدأ الألم قليلًا. حين رأى ميثم على ضوء الشمع دموع زوجته، وهي تنظر إليه بتضرع، قال: «ماذا عليّ أن أفعل يا عزيزتي»؟.

وضعت شيرين يدها على بطنها، وجلست عند زاوية الجدار.

قالت المرأة العجوز بعد أن تمكنت من النهوض بنفسها قليلًا:

- اذهب وأخبر أحدًا.

- أنا لا أعرف أحدًا، والجميع في منتصف هذا الليل نائمون.

توجه ميثم إلى زوجته، وساعدها على الوقوف. كانت تتألم بشدة. وضعت فمها على ذراع زوجها، وضغطت عليه بأسنانها حتى لا يخرج صراخها، فاختنق صوتها في حنجرتها.

- إذا لم تسرع فسوف تموت.

نظر ميثم من النافذة؛ العتمة في الخارج تلف المكان. من يستطيع أن يساعدهم في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ كم كان جيدًا لو أن رستم هنا الآن! إنه صديق كثير من الناس.

- قابلة!

تمهل ميثم قليلًا ريثما تهدأ شيرين. بعد ذلك توجه نحو الباب، لكن قلبه لا يطيعه أن يترك زوجته وحيدة في هذه الحال. ليت «سودابة» لم تكن مريضة، ولم يصبها داء الفالج.

نهضت شيرين وأمسكت خاصرتها، ثم ألقت برأسها على الجدار ووجهها مقطب؛ ونادت «يا الله».

- اذهب يا ميثم، اذهب وافعل شيئًا.

وضع ميثم قدمه في عتمة الزقاق، وانطلق وهو متوجس. كان يتقدم بضع خطوات، ثم يتوقف ليرى إن كان صوت زوجته يُسمع أو ... ثم ينطلق مجددًا. كان الزقاق خاليًا وساكنًا. لم يكن يضيئه مصباح واحد. تابع سيره حتى وصل إلى الجسر

الخشبي. أراد أن يضع قدمه فوق الجسر، حينها أدرك أنه لم ينتعل حذاءه؛ لكنه أكمل طريقه. أيّ باب يجب أن يطرق؟ كان عليه أن يفكر في أول الليل، وليس الآن وقد انتصف، وقد نامت العيون ولا أصوات سوى عواء بنات آوى، ونباح الكلاب. لكن من أين كان يعلم أن طفله سيأتي إلى الدنيا في منتصف الليل؟

توجه ميثم نحو دار الإمارة وهو حائر. لعله يرى شخصًا هناك، أو لعلّ جنديًا يراه، فيسأله ماذا يفعل وحده في هذا الليل. لكن محيط القصر كان خاليًا ومخيفًا؛ فبابه لم يفتح منذ

أن قال أمير المؤمنين: «لا تدخلوني قصر الخبال هذا»، ناهيك عن خلوّه من الحراس والجنود! لقد تحول إلى مخزن وإصطبل للخيول.

كانت لسعات الصقيع تهبّ من جهة الفرات، فتخبر أن فصل الشتاء قادم. أساسًا، لماذا لوى طريقه نحو دار الإمارة؟ مرّ بجانب دار الخبال الفارغ، وتوجه إلى المسجد. ماذا يقول إن استوقفه أحدهم؟

- إلهي أغثني!

أبطأ الخطى قرب دار جعدة. السكون سيد الموقف ولا صوت من هناك؛ فأمير المؤمنين وجميع أبنائه في الحرب. لم يسمع سوى صوت بضع إوزات قلقة كانت تثير جلبة. وقف لحظة، ثم ما لبث أن مضى.

بعد كل تلك السنين التي عاشها ميثم في الكوفة، هو الآن يشعر بالغربة والوحشة. شعور يقول له: «كم هي غامضة هذه المدينة! عندما تحتاجها تتركك وحيدًا». وصل إلى المسجد. وقف أمامه للحظات عله يرى أحدًا. كان في آخر المسجد عدد من الرجال الطاعنين في السن، كانوا بين راكع وساجد. ماذا عن النساء؟ أفي هذه الليلة الباردة؟! ضحك من نفسه على هذه الأفكار، ثم نظر إلى السماء الصافية، فكلما صفت أكثر، اشتدت لسعات بردها أكثر. في تلك اللحظات مرّ رجل مسنّ يضرب بعصاه، ودخل المسجد وهو يهمهم.

- إلهي أرسل لي شخصًا واحدًا!

لم يقر له قرار. تحرك نحو السوق. لماذا لا يوجد أصوات؟ أليس هناك من طفل يبكي، فتستيقظ أمه على صوت بكائه لتهدئه. لعله حينها يستطيع أن يدق بابًا. لم يدرِ كيف أخذه الطريق إلى سوق السمك. وقف أمام دكان رستم الفارغة. لا باب لها، كانت عبارة عن أربعة جدران، وستار معلّق أمامها. لكن رستم ليس موجودًا الآن. كان ميثم طوال تلك السنوات التي مضت كلّما شعر أنه بحاجة إلى أن يتحدث إلى شخص، وجد الطريق قد انتهى به إلى دكان رستم. لكنه ماذا يفعل هنا الآن في هذه الليلة الباردة؟ فرستم تركه منذ مدة، وذهب مع جيش أمير المؤمنين إلى صفين. وحتى الآن، لا خبر عن الحرب، ولا عن أي شيء آخر. يقول الرسل الذين كانوا يأتون من جهة الشام، إن أمير المؤمنين يسعى جاهدًا ليعيد معاوية إلى طريق الرشد والعقل، علّه بذلك يحقن دماء المسلمين، فلا تقع الحرب.

كان ميثم يرتجف؛ لكن من البرد يا ترى، أم من شدة القلق؟ كانت قدماه العاريتان تغرقان حتى الرسغ في نهر صغير يمر وسط الزقاق. لم يتوقف. مضى وهو ينظر إلى السماء. كأن القمر راح يبتسم بوجهه الدائري الكبير؛ لعله يريد أن يتباهى بعظمته. وقف ميثم هنيهة يصغي؛ لا صوت، ولا حركة. وكأن ذلك كان مقدرًا؛ فهو يعاني هنا، وشيرين في البيت تتألم وتعاني أيضا. كانت الأفكار المشتتة تشوش فكره من كل اتجاه.

- أسرع يا ميثم، فالطفل يختنق.

- ماذا لو أصاب شيرين مكروهٌ ولم تنجُ من هذا الأمر؟

وضع كفيه على الجدار، وراح يتضرع بألم وحزن.

- إلهي... يا إلهي الواحد...

كان ميثم شارد الفكر. أي امتحان هذا؟ كان حائرًا في تلك المدينة. راح يمشي في كل اتجاه. بدت الكوفة مدينة أرواح، وكأن الجميع قد ماتوا. لم يكن يسمع غير صهيل الخيول، وصوت اجترار الإبل من خلف الجدران. كان يسير في كل اتجاه، عله يرى أحدًا. لم يكن في ميدان الكناسة سوى بضعة كلاب، تنطلق خلف بعضها بعضًا في قطيع، وتلتفّ حول أكوام القمامة مطلقة أصوات عوائها.

في تلك الناحية من ميدان الكناسة، كانت تنتصب بضعة بيوت غير مكتملة البناء، وقد تُرك بعضها في منتصف العمل. لقد ذهب أصحابها مع جيش أمير المؤمنين إلى الحرب. لكن بعضا الآخر - كبيت ابن حريث- كان دارًا مؤلفة من طبقتين. لم يكن ابن حريث قد أتى بعدُ للعيش فيها. توجه ميثم إلى نخلة منتصبة أمام دار عمرو بن حريث. طاف حولها، ثم أمسك بجذعها، ونظر إلى السماء، فلاح له قرص القمر. كان القمر يرتجف بين أغصان النخلة وأوراقها؛ كأنه يريد أن يُشعره بأنه مضطرب مثله. لماذا لا أحد يفكر بحاله؟

- إلهي...

في تلك اللحظة تدافعت الذكريات في ذهنه وتزاحمت؛ ذكريات من زمن بعيد بعيد، حين أخذوه أسيرًا من النهروان، وجلبوه إلى الكوفة. لقد جمعوا الأسرى حول هذه النخلة.

تلك الذكريات جعلته يرتعش وينتفض، ويصيح لا شعوريًا: «ماجدة»... ركض مسرعًا لا يلوي على شيء. لماذا لم يتذكر ماجدة في أول الليل؟ لماذا لم تخطر ماجدة في ذهنه؟ مضى نحو حي بني أسد. هناك منزل في طور البناء قد سدّ الطريق إلى قبيلة بني أسد. توجه نحو ذلك المنزل، ومشى فوق الأتربة والركام، ثم مضى مسرعًا من غير أن يلتفت إلى الجروح والآلام. قفز فوق الجدار، وعبر بين القمامة... اختفت الكلاب المذعورة في العتمة، ولم يبق لها أثر إلا النباح. كان أحيانًا يلتفّ حول الدور والأبنية التي لم تكتمل بعد...

لم يدر كيف أوصل نفسه إلى بيت ماجدة. استقبله الكلب بالنباح؛ كانت عادته كلما رآه يدفع الهواء في حلقه ويبدأ بالهرير.

- ماذا تفعل هنا في منتصف الليل يا سالم؟

رأى ميثم العجوز ماجدة واقفة بباب دارها، ممسكة بإطاره الخشبي.

- ساعديني يا أماه!

- ماذا جرى؟

تابع ميثم وهو يلهث: «زوجتي»

خرجت المرأة العجوز من الدار.

- هل حل بها مكروه؟

- ولدي!

دخلت ماجدة إلى الدار ثم عادت وعلى رأسها ملحفة بيضاء.

- أستحلفك بالله يا أمي أن تفعلي شيئًا! إنها تتألم كثيرًا.

- اصبر قليلًا يا ولدي.

دخلت ماجدة إلى غرفة أخرى، انتعلت حذاء من ليف النخيل كانت قد صنعته بنفسها.

- أين مصباحك؟

- أسأل الله أن تبقى حية.

- لا تكن عجولًا إلى هذا الحد يا بنيّ! فعيناي لم تعودا كما في الماضي. ولم تجلب معك مصباحًا أيضًا.

- لم أكن أعلم ماذا يجب أن أفعل.

تباطأ ميثم ريثما تصل إليه ماجدة.

- الله كريم. لا تقلق كثيرًا.

أمسك ميثم بذراعها.

- لم تنسني إذًا؟

- لقد كنت لي أمًّا جيدة يا ماجدة!

- وأنت أيضًا يا سالم! كنت فتى لطيفًا.

تنحنحت ماجدة واتكأت على الجدار لتستريح قليلًا.

- سمعت أن الخليفة قد أبدل اسمك.

- لقد أعاد إليّ اسمي الحقيقي، ميثم.

- وحررك أيضًا. قليل من الناس ينالون حظوة التحرر على يد صهر الرسول.

لم يجب ميثم. بل صبر حتى استعادت العجوز أنفاسها، ثم انطلقا في وسط ذلك السكوت. غير أن ماجدة لم تقدر على البقاء ساكتة.

- حسنًا فعلت أنك زرت هذه المرأة العجوز.

- اعذريني يا أماه أن جئت في منتصف هذا الليل؛ ولحاجة أيضًا...

- ماذا تقول يا بني؟ لقد كنت رجل بيتي.

أعانها ميثم حتى عبرت الجسر الخشبي براحة. عندما وصلا حاول ميثم أن يصغي جيدًا؛ لكنه لم يسمع صوت أنين شيرين، فأغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا.

- ما زلت شابًا يا ميثم! أما أنا العجوز فقد قطعت أنفاسي.

فتح ميثم الباب. كانت الشمعة قد بلغت نهايتها، وما بقي من فتيلتها ضارب إلى الحمرة. وقفت ماجدة عند عتبة الباب. كان بكاء شيرين وأنينها المختنق يأتي من جهة زاوية الغرفة.

- أسرع! هات المصباح وسخن قليلًا من الماء. أسرع.

تقدمت المرأة العجوز وأمسكت بذراع شيرين، وطلبت منها أن تقف، لكن المرأة الشابة لم تتحرك، فصرخت العجوز بغضب وأمرتها بالوقوف.

-أسرع يا ولدي! سخن الماء.

جلب ميثم شمعة جديدة، ووضعها في كوة الجدار، ثم ذهب مباشرة إلى الخارج، جمع بعضًا من الحطب وسعف النخيل،

وألقاها فوق الجمر الذي كان لا يزال تحت الرماد، وأشعل النار. ثم وضع فوقها قِدرًا ملأه ماء، وراح يلقي بأوراق النخيل اليابسة في النار، حتى تستعر أكثر فأكثر.

كانت ألسنة النار تخرج من الجهات الأربعة تحت القدر النحاسي، وترتفع عاليًا، وتصدر أجيجًا، بينما ميثم يوجه أذنيه نحو النافذة؛ حيث ماجدة تطلب من زوجته أن تمشي ولا تتوقف.

-ألم يسخن الماء؟

-حالًا...حالًا...

أمسك ميثم بحوافي القدر، ورفعه عن النار. كان القدر ساخنًا إلى درجة كانت كافية لأن تحرق جلد يديه؛ لكنه بقي ممسكًا به ولم يتركه، حتى أوصله إلى خلف الباب. وضعه وقال: «الماء». ثم رجع إلى

الخارج، حيث ألقى برأسه على جدار الإصطبل. لم يستطع أن يمسك دموعه، فانهمرت على خديه دفعة واحدة وهو يردد خلف شفتيه الصامتتين: يا رب...يا رب...

لم يكن ميثم في هذه اللحظات يسمع صوت شيرين. أحسّ بغصة في حلقه، وتلاشى القمر أمام عينيه وصار مظلمًا. راح يتمشى في العتمة وهو خائف متردد. استدار برأسه إلى الوراء؛ نظر إلى توهج جمر الموقد. كانت الريح تهب فيتلألأ وميضه أكثر، لكن ما إن تهدأ الريح ، حتى تغطيه طبقة رقيقة من الرماد. ارتفع أنين شيرين فتأوه هو أيضًا، ثم دوى صوت بكاء المولود الجديد في الدار.

- اجلب وعاء الماء يا ولدي!

- إنه خلف الباب.

- تعال! اجلبه بنفسك إلى الداخل؛ فلا يوجد أحد ليساعدني.

شق ميثم الباب إلى النصف، وأدخل قدر الماء، ثم رجع ووقف قرب النخلة، وراح يتأمل القمر. كانت هذه الليلة بالنسبة إليه بمنزلة عمر مضى؛ ولعلها كانت بطول تاريخ كامل. مرت في ذهنه ذكريات. ذكريات بكاء، وضحك؛ ضحكة شيرين عندما كانت تراه من النافذة، فتركض إليه مسرعة، وتناديه باسمه، وتجلب له الماء حتى يغسل يديه... هل ما زالت على قيد الحياة؟ أغمض ميثم عينيه. بماذا يجيب رستم إن هي خسرت حياتها؟ لقد قال لي هاتان المرأتان أمانة في عنقك. ليته ذهب وبقي رستم مكانه. لماذا لا يسمع صوت شيرين؟ حبس أنفاسه في

صدره. لماذا لا تقول ماجدة شيئًا؟ ما هذه الليلة التي لا تنتهي؟!

ارتفع صوت الأذان من بعيد.

- قولي شيئًا يا ماجدة؛ أيتها المرأة الحنونة!

كانت عينا ميثم مسمرتين نحو الباب، وأذناه مصغيتين باتجاه النافذة. كان يمشي حتى باب الغرفة ثم يعود. لماذا لا يقول أحد شيئًا؟ إنه عمل النساء، ويعلم أنّ عليه الانتظار. لكن ماذا لو أن شيرين... لم يستطع حتى أن يتخيل ذلك. كان لصوت الأذان في تلك الليلة رونق مختلف. فجأة سمع صريرًا. ركض نحو الباب.

- شيرين؟

- لا تقلق. لو تأخرنا قليلًا لفقدناهما معًا.

انفجر بالبكاء من شدة التأثر.

مبارك...

علا صوت بكاء المولود الجديد، فتغير وجه ميثم على شعاع النار الموقدة، وارتسمت البسمة على شفتيه.

- لقد أغمي على زوجتك، لكنها الآن بخير. اسأل الله أن يجعله ولدًا صالحًا.

ارتفع صوت بكاء الطفل أكثر.

- تعال إلى الداخل.

وضعت ماجدة المولود الجديد المقمط بملحفتها البيضاء بين ذراعي والده.

# **10**

- السذاجة والجهل هما السبب في ضياع كل شيء يا ميثم! كان الأمر فظيعًا.

- يعني أن معاوية قد هرب بهذه السهولة؟

- لولا سذاجة بعض أهل الظاهر لشهدنا أمرًا آخر. ليت ذلك الماكر فرّ وحسب. لقد مزق صفوف أهل الكوفة بمعونة ابن العاص.

- يعني أصاب هدفين بسهم واحد. لقد أحدث تصدعًا في صفوف أهل الكوفة، وفرّ من المعركة[[9]](#footnote-9) أيضًا.

لم يكن رستم ذلك الرجل الذي يلقبه العرب بأبي الفوارس، ولم يكن ذلك الشخص الذي خرج من الكوفة مع جيش أمير المؤمنين مفعمًا بالشوق والحماسة؛ بل كان كئيبًا وحزينًا.

كان «صالح» حفيد رستم الذي بلغ سنته الأولى يجلس على ركبتي جده، وكان يستدير أحيانًا ويعبث بلحية جده الطويلة البيضاء، بينما رستم يمسح بيده العريضة، التي تشبه الكأس، على شعر حفيده الأشقر الناعم، فتحيط برأسه مثل القبعة. لقد مضى أكثر من عام حتى تمكن الرجال الذين ذهبوا إلى

الشام من العودة إلى الكوفة؛ لكن بأي حال عادوا! فالكوفة لم تعد كما في السابق، وهذا ما يعرفه الجميع. كان ميثم أكثر من شعر بهذا الأمر، فهو تاجر ويتعامل مع الناس في السوق؛ كانت مشاعر ممزوجة بالكراهية والاستياء، ولربما شعور بالخديعة وتحطيم الكبرياء. فجنود معاوية استطاعوا أن ينجحوا بالمكر والحيلة، وتمكنوا من خداع أهل الكوفة برفعهم المصاحف على رؤوس الرماح. ثم جاءت قضية التحكيم؛ حيث خدع ممثلُ معاوية الحكمَ الذي عينه الكوفيون، ونصب معاوية خليفة

للمسلمين. تلك الحيلة فرقت جموع الكوفيين، وجعلتهم يشعرون بالخيبة واليأس.

كان ميثم إذا ذهب إلى السوق، تحسّر بشدة على غياب أصدقائه وأصحابه. لقد تركوا خلفهم فراغًا كبيرًا. أين هاشم المرقال الذي كان يرافقه في حراسة أحياء الكوفة وأزقتها؟! كان شابًا بارعًا ورشيقًا على الرغم من صغر سنه، وجرحه الذي أصاب يده. كان الجميع ينادونه «عقابًا»؛ فهو يملك يدين قويتين، وساقين صلبتين تشبهان الأعمدة القوية. كان إذا عانقه سُمع صوت عظام ترقوته، فيضحك ويقول: يجب أن نتصارع يومًا ما لنرى من فينا هو الأقوى. أما الآن فلا هو موجود ولا صوت ضحكاته. وعمار أيضًا لم يكن موجودًا، لقد رحل ورحلت معه تلك النظرات التي كانت تمنح السكون والطمأنينة. كان ذلك العجوز إذا رآه ضحك وقال: «سلمان آخر من أبناء فارس». كان يضحك حتى تظهر أسنانه التي ضمرت حتى لصقت بلثته. عندما كان ميثم يذهب إلى أمير المؤمنين، يرى دائمًا ذلك الرجل المسنّ «عمار بن ياسر» واقفًا بجانب الباب، وكأنه ينتظره. فكان عمار يمسك يده بلطف، إذا دخل الدار، ويستوقفه، فلا ينزع يده من يد ميثم حتى ينزعها ميثم أولًا. وكان يعانقه ويقول: «أتعلم يا ميثم بمن تذكرني؟» فيضحك ميثم ويجيب: « ليس من العرب» فيقول عمار: «لا فرق بين عربي وعجمي يا أخي! لقد سمعت ذلك من رسول الله» ثم يلبث قليلًا ويقول: «عيناك الثاقبتان الحزينتان تذكرانني بأخي سلمان».

«لقد سمع ميثم باسم سلمان، لأول مرة، على لسان عمار بن ياسر. سلمان الذي طوى طرقات طويلة وصعبة حتى وجد ضالته. فقد ابتلي باللصوص، ثم بيع عبدًا، ثم سجن فترة من الزمن، حتى انتهى به المطاف في المدينة. هو أيضًا كان عبدًا لامرأة؛ لكن الفارق بينهما، أن سلمان كان عبدًا عند امرأة يهودية، إلى أن مرّ الرسول يومًا، فرآه يعمل في بستان نخيل، فاشتراه وحرره، وصار من آل الرسول. لقد عدّه الرسول من أهل بيته. ما أشبه قصة حياتَيهما! ميثم أيضًا اشتراه علي أمير المؤمنين، وصار صاحب الخليفة في الكوفة، وأمين أسراره».

- كان سلمان رجلًا عفيفًا وتقيًا يا ميثم! مثلك تمامًا. أحبّه رسول الله حبًّا جمًّا، كما يفعل أمير المؤمنين. إن عليًّا يحبّك ويقدّرك.

- ماذا تقول يا رجل! أين أنا بائع التمر وابن بائع التمر، وأين أمير المؤمنين! ما إن قال ميثم ذلك حتى طفحت عيناه بالدموع. عند ذلك ضمه عمار مرة أخرى إلى صدره، وهمس في أذنه: «لا تقلّل من شأنك يا أخا الفُرس، فأنت تعلم أن عليًا يحبك كثيرًا».

كانا عندما ينتهي حديثهما يدخلان إلى الدار، ويعبران بالقرب من بئر كان أمير المؤمنين قد حفرها بنفسه؛ بئر لا يوجد في المحيط نظيرٌ لها في عذوبة مائها. ثم يتوجهان إلى الغرفة التي يجلس فيها أمير المؤمنين وحيدًا.

مر ميثم بجانب دار جعدة وهو يتأوه ويتحسر. كان يشعر بخلو مكان عمار، وكان يشعر كأن ثقل امتداد نظراته ما زال جاثمًا

على كاهله. أكمل مسيره، ومضى من أمام مسجد الكوفة. لقد اشتاق إلى تلك المرأة العجوز؛ صوت ماجدة كان يمنحه السكون والطمأنينة. تلك المرأة العربية كانت تعرف الجميع جيدًا، وتعلم ما يدور في رأس كل قبيلة. قالت يومًا: لو يعلم هؤلاء الكِنْدِيّون الذين هم مع علي اليوم، أن السلطة ستعشش في وكر آخر، لانقلبوا على أعقابهم، ولسلّوا سيوفهم لهدف آخر. فالقبائل التي اجتمعت في الكوفة كانت مختلفة الأفكار. كانوا جميعًا من العرب، وكان العجم والفرس بينهم مثل الطين الذي يوضع بين لبنات الجدار فتجمعها وتلصقها بعضها إلى بعض. لكن العرب أنفسهم لم يكونوا على قلب واحد على الرغم من تجمعهم. هذا الأمر كان يقلقه كثيرًا؛ حتى أنه قال لأمير المؤمنين ذات مرة: إن قومك على لسان واحد ولون واحد، لكنّ في قلوبهم أفكارًا شتى. عندها أمسك أمير المؤمنين معصمه بلطف، ونظر في وجهه؛ فقرأ ميثم في عينيه! إني أعلم منك بهذه المدينة المتقلبة بألف صورة ووجه.

انعطف ميثم نحو دار ابن حريث التي سُكنت مؤخرًا. كان عدد كبير من الرجال قد تجمعوا قرب النخلة، ينحرون جملًا عند زاوية ميدان الكناسة. كان الخنجر لا يزال منغمسًا في لبّة البعير، بينما الحيوان الضخم والقوي يهدر ويقاوم بشدة، ويحاول أن يستعصي على الرقود. أما الرجال فكانوا يمسكون بالحبل في عنقه، ويشدّونه إلى الأسفل، حتى يجثو على الأرض. كانت الدماء تفور إلى السماء عند كل هدرة يطلقها الجمل،

حتى صبغت جدار بيت عمرو بن حريث. في نهاية الأمر، شخر البعير شخرة قوية محاولًا أن يحرر نفسه، لكن الرجال كانوا أقوى منه، واستطاعوا أن يثبتوه بقوة. مع مرور اللحظات نزفت دماؤه أكثر فأكثر، فضعف الحيوان وسقط إلى الأرض.

لم يستطع ميثم تحمل ذلك المشهد، فتجاوز الرجال ومضى. كان يفكر في نفسه؛ إنه مجروح مثل هذا البعير، إلاّ أنّ جرحه من دون شاهد أو علامة. ودّ في تلك اللحظات لو أنه يتحدث إلى أحد ما. لكن لم يجد أحدًا ليكلمه. أين يذهب؟ توجه إلى سوق السمك، يعرف أن رستم ليس هناك، فدكانه صار مثل خرابة من غير صاحب. لقد انهار سقفه، وخرّ سعف نخيله إلى الأرض. لم يعد سوق السمك برونق الماضي في غياب صياح أبي الفوارس.

- ما خبر رستم؟

كان مزاج ميثم فاترًا، فلم يجب الفتى الجالس على حافة تخت السمك ينتظر المشترين. ابتعد عنه بهدوء، ثم انعطف خلف محلات بائعي القماش، وتابع سيره على الرغم من بُعد الطريق. كان قلبه مليئًا بالحزن والأسى، وصدره مثقلًا بالألم. كان يود لو يتحدث إلى أحدهم، لكن مع من يتحدث؟ فأمير المؤمنين مشغول هذه الأيام بالإعداد لحرب أخرى. أما أصحابه الدائمون [الثابتون معه] فلم يعودوا موجودين. وصل إلى نهاية سوق القماش المتصل بحي بني كندة. كانت الأصوات متعالية؛ صراخ من هنا وصراخ من هناك. تذكر ميثم ما قاله رستم عن

الأشعث رئيس قبيلة كندة. لم يكن حينها ليصدق كلامه، لكن حديث ماجدة ما زال في ذهنه.

- لقد سللنا سيوفنا، وحاربنا بشجاعة، وسقطت منا دماء؛ والآن يطلبوننا كأننا مدينون لهم! هل هذا جزاء بعدنا عن ديارنا سنة كاملة، وتحمل المشقة والعيش في الحر والقر؟.

- الآن لم يحدث شيء!

- ماذا كنتم تريدون أن يحدث؟ أهناك عار أكثر من اتهام كندة بالخيانة؟ لماذا لا تدركون ذلك؟ لقد رفعوا القرآن «كلام الله» عاليًا، وجعلوه حكمًا. نحن لا يمكننا أن نسل سيوفنا في وجه القرآن!

-كان من الأفضل أن تستمعوا إلى كلام مالك الأشتر، أو...

- من أين كنّا نعلم أي حيلة يخبّئ لنا ذلك الماكر. على كل حال، لم يفت الأوان بعد، نستطيع أن نلحق بهم، ونضرب رؤوسهم بسيوفنا.

- الحرب مرة أخرى! ماذا تقول يا رجل؟ لقد خلت بيوت الكوفيين من الرجال. أما الذين عادوا أحياء، فعادوا مثخنين بالجراح. تجَوّلْ عند منتصف الليل في أزقة الكوفة، واسمعْ أيّ أنين لجرحى صفين، وأيّ ضجيج لهم.

لم يتوقف ميثم ليستمع أكثر إلى هذه الأحاديث؛ فرستم كان قد حدثه كيف مكر معاوية في آخر لحظات الحرب، وكيف استطاع أن يخدع أهل الكوفة السذّج، بأن رفع المصاحف فوق

رؤوس الرماح. ولربما حرّض حلفاءه المندسين خفية في جيش علي حتى يجدوا ذريعة مقنعة، وبذلك يضعون سيوفهم في أغمدتها، ويتوقفون عن القتال. حتى أن رستمَ قال بوضوح: «إذا لم أكن مخطئًا، فإن الأشعث قد قبض رشوة، وتآمر مع الشاميين». خصوصًا أنه خالف أمير المؤمنين، وشوهد وهو يدخل الخيمة على عليّ سالًّا سيفه، وهدده بالقتل إن لم يصدر الأمر بوقف القتال.

لم يكن ميثم يطيق صوت الأشعث الناشز الأجش، ولا سلوكه المتكبر، حتى من قبل أن يأتي أمير المؤمنين إلى الكوفة؛ لا سيما عندما كان يضع قدمه في السوق، وهو يرتدي لباسه الفاخر، ويطلب أفخر أنواع التمر البرني. كانت تفوح من ضحكاته وكلماته، الحادة كالخنجر، رائحة الاستهزاء والتحقير. كان يدعوه بميثم العجمي، وابن العجمي، ويرمقه بتلك النظرات المعهودة، ثم ينتقي حبات التمر بيده، ويضعها في فمه؛ وكأن يد ميثم نجسة.

عاد ميثم أدراجه، وشق طريقه عبر سوق صناعة السيوف، وتوجه نحو دكانه. كان يحدوه الأمل أن يأتي أمير المؤمنين إلى السوق عند اقتراب موعد صلاة الظهر. رفع قطعة القماش عن سلال التمر، وأخذ كرسيه ووضعه في الخارج قرب الباب. كان مشتاقًا لعطر صهر النبيّ؛ فهو يعشق المكان الذي يضع فيه أمير المؤمنين قدميه. مضت أيام وعلي لم يأت إلى السوق إلا قليلًا.

- أخيرًا، ظهرت يا رجل! أين كنت منذ الصباح؟

رفع ميثم رأسه. إنه شاهين، العبد الذي يدعوه سيده بعبد الرحمن. أقبل بذلك الوجه المستطيل، وتلك العينين الغائرتين، وهو يرتدي لباسًا عربيًا مخططًا بالأزرق والبنيّ، لم يكن اللباس لائقًا على جسده.

- هذه الدشداشة لا تناسبك.

- أنا مجبور على لبسها، فسيدي لا يحب اللباس العجمي.

- سمعت أنه يعتزم الخروج من الكوفة.

- جئت لهذا الأمر. أريد أن أشتري التمر ليأخذه معه في سفره.

- لأجل ذلك كنت تنتظرني؟

وقف عبد الرحمن وهو يقدّم رجلًا ويؤخر أخرى، ثم قال: «جئت منذ الصباح وعدت مرات عديدة. في النهاية لا يمكنني أن أشتري التمر من مكان آخر؛ لأنه سوف يختلق الذرائع. أما التمر لديك فنظيف، وعلى نسقٍ واحد. هذا التمر البرني لا كلام عليه.

- جميع التمر جنى نخيل الكوفة.

- ربما. لكن سيدي يقول إنّ تمر ذلك العجمي ذي العينين السوداوين، شيء آخر. ثم ضحك ومد يده وتناول حبة من التمر، من غير أن يستأذن أحدًا، ثم نظر حوله، وحين لم ير أحدًا، ألقاها في فمه، وراح يمضغها. بعد ذلك لحس شفتيه وقال: «إنها تذوب داخل الفم مثل الزبدة، وطعمها كالعسل».

تبسم ميثم، وسأله: «لم تقل لي، إلى أين يذهب سيدك؟».

مدّ عبد الرحمن رأسه إلى الأمام، وقال بصوت خافت: «إنه غاضب من علي»، ثم تابع كلامه بهدوء أكثر: «أنت صاحب الخليفة، فلا تأخذ بهذا الكلام. إنه يعدّ أمير المؤمنين كافرًا، ويقول: «يجب أن يتوب».

عبس ميثم وقطب وجهه.

- ماذا؟

- يقول: «ما كان يجب على الخليفة أن يصالح معاوية، وأن يستمع إلى كلامه».

- يقول رستم إن ابن وهب وأصحابه هم الذين أجبروا الخليفة على هذا العمل. الآن صار صهر النبي مذنبًا ويجب أن يتوب؟

رفع عبد الرحمن كتفيه، وقال: «أعتقد أنه قد جنّ. يقول إنه وأصحابه قد أعلنوا التوبة، والآن نوبة علي؛ عليه أن يظهر ندمه. لهذا السبب قرر أن يخرج من المدينة مع أصحابه. يريد أن يذهب إلى أناس لم يضعوا أقدامهم في الكوفة قط. لقد سمعت أنهم نصبوا خيمة بالقرب من مكان مولدك.

-أين؟

- النهروان.

- ولكن أنا...

- أنا أرى أنه الوقت المناسب كي تزور بلد آبائك وأجدادك؛

لعلك تجد خبرًا عن أمك وأبيك، لعلهما ما زالا حيَّيْن.

أطبق ميثم عينيه.

- أسرع، هيا املأ سلتي بالتمر، وإلا سيعاقبني سيدي وهو بهذا المزاج الحاد.

- أنا لا أبيع التمر إلى عدو أمير المؤمنين.

- ماذا؟ لا تفعل بي هذا يا ميثم. سيقتلني.

- أمامك كل هذا التمر. اذهب واشتر ما شئت من مكان آخر.

تغير لون وجه عبد الرحمن، وصار طعم حبة التمر التي تناولها مرًّا في فمه. نظر إلى ميثم نظرة التماس ومد يده وقال: «يا ابن يحيى! أنا وأنت من القوم أنفسهم، وصداقتنا أهم من كل شيء. لا تجعلني عرضة للسان هذا الرجل السليط».

- لقد قلت كلمتي. أنا لا أبيع التمر للخائنين.

مشى عبد الرحمن قليلًا وهو يلوم نفسه. وصل إلى باب الدكان ثم عاد ليقول شيئًا، غير أن ميثمًا أسكته بحركة من يده.

- لماذا لا أستطيع أن أصون لساني الطويل؟

خرج عبد الرحمن من الدكان وهو يتمتم: «لعنه الله. سأقول له كانت دكانه مقفلة». ثم ما لبث أن عاد وقال: «لكن أين حقّي؟»

تبسم ميثم، وقبض قبضة من التمر، ثم وضعها في سلة عبد الرحمن. كانت أكثر من كل مرة، ثم قال: «أما أمرك فمختلف».

# **11**

كانت حبّات الماء تقطر من لحيته الطويلة، فيموج وجه القمر داخل البركة، ويتراقص على وقع تلك القطرات، ويمتلئ بالثنايا. برودة الماء كانت تنعش قلب ميثم وتدخل السلوى إليه. أخذ نفسًا عميقًا، ثم دفع الهواء الساخن من صدره، ونظر إلى البركة. أهدابه المبللة قطّعت صورة القمر في البركة إلى أبراج متساوية.

توكأ على ركبتيه، ثم استوى واقفًا وهو يزفر آهات مشبعة بالحزن والأسى. بدت أطراف البركة مظلمة وصامتة، إلا من أصوات الصرير التي كانت تسمع، فتوحي بأن صراصير الليل التي أقلقت زفرات ميثم سكونها قد استفاقت... كان المحيط باردًا وغامضًا، مثل مدينة الكوفة في هذه الليالي المخيفة. تحرك بهدوء، وعبر الجسر الخشبي الذي أبدل مؤخرًا، فصار أكثر سعةً من السابق، حتى يستطيع الراكب عبوره من دون خوف.

دخل ميثم إلى داره. وقف بجانب النخلة وسط فناء الدار، وراح يتأمل لعب الريح والأوراق مع القمر، فيتصور أن القمر يلعب معه، لا مع الريح والأوراق التي صارت تقطّع بحركتها وجهه[[10]](#footnote-10)

إلى قطع. مرّ بجانب النافذة. كان صالح ممددًا في الغرفة تحت ضوء القمر، وشيرين في الجهة الأخرى، تضم طفلها شعيبًا إلى صدرها، بينما كانت شفتاه الصغيرتان تتحركان وهو يرضع اللبن. كانت شيرين تتنفس بهدوء واطمئنان، كأن لا خبر يشغل بالها. للحظات، تمنى لو كان مثلها فارغ البال. لم يكن بوسعه إلا أن يقلق؛ خصوصًا، مع تلك الشائعات التي كان يسمعها من هذا وذاك في الأزقة والأسواق.

- لقد أرسل معاوية بعض الرجال لقتل أمير المؤمنين.

- ذلك الثعلب، انهزم في ميدان الحرب، والآن يشرع بالقتل والنهب، ويرسل فرسانه إلى أطراف الكوفة ومدنها لقتل النساء والأطفال، ويوظف أجراء قتلة أيضًا.

- ماذا تقول يا رجل؟ لا حاجة إلى معاوية؛ فأشراف القبائل ورؤساؤها متعطشون لدماء علي.

- يجب أن يغضبوا. فمتى كنت أنت وعبدك سواسية؟ أوَرأيت رجلًا عجميًا يصبح جليس الخليفة، ويكون كلامه مسموعًا أكثر من كلامك؟!

تلك الهمهمات التي كان يسمعها ميثم في الآونة الأخيرة، جعلته يتألم ويكابد. وعندما كان يبث حزنه وألمه إلى أمير المؤمنين، كان علي يبتسم ابتسامة هادئة، ويقول له إنه يعلم لماذا تبدل هذه الأفاعي جلودها الناعمة المرقطة، وإن هؤلاء عبيد الدنيا، ودنياهم أصبحت في خطر. كان ميثم يلجأ إلى أصدقائه، فيظهر لهم قلقه؛ لكن أحدًا منهم لم يكن ليقنعه،

فهم أيضًا كانوا قلقين مثله.

- ألا تسمع فحيح الأفاعي يا أخي؟

- نعم يا صديقي! لقد اضطربت الدبابير.

- الأسوأ من ذلك كله، تلك الشائعات التي يهتز لها الإنسان، وتسرق النوم من الجفون.

- يجب أن نراقب تحركات الغرباء. أرى أشخاصًا هذه الأيام لم أكن أراهم سابقًا في الكوفة، خصوصًا حي بني كندة؛ لقد أصبح عشًّا للدبابير.

- لعل هذا هو السبب الذي جعل الأشعث قليلًا ما يخرج إلى الضوء.

كان ميثم يتأوه، ويفكر في أمانيه؛ ماذا كان يعتقد، وماذا يرى؟ كان كلام جندب مثل الخنجر، يجرح قلبه، ويقطع كبده إلى قطع:

- قلنا ما إن يأتي أمير المؤمنين إلى الكوفة، حتى يذهب الحقد والبغض؛ ولكن...

كان ميثم يتذكر الأحاديث التي سمعها هنا وهناك.

- عليّ هو المقصر، فلو سار على سيرة الخلفاء السابقين، لما وصل الأمر إلى هنا. عندما لا يفرق عليّ بين العرب وهؤلاء العجم، ويساوي في العطاء بين عبدي وبيني - أنا الذي أضاء مصباح الإسلام في بيتي- عندها ستكون النتيجة هي هذه. إن الله بذاته قد جعل بيننا فرقًا؛ وإلا فلماذا خلقنا نحن العرب

أقوياء وذوي جمال وحسن، بينما خلقهم ضعفاء وقبيحين؟

-أجل لقد اختير الرسول منا نحن العرب. القرآن أيضًا نزل بلغتنا. إن الكلب العربي أشرف من الآخرين.

- ليس عبثًا أن يقال لهم «العلوج».

- هؤلاء العلوج قد امتطوا ظهورنا.

- أنا أعتقد أن الوقت ما زال متاحًا؛ يجب أن يبدل علي سيرته.

- لا أعتقد ذلك، فالسيل قد بدأ، والدماء التي سفكت في صفين والنهروان قد جعلت الحقد أكثر من ذي قبل؛ ففي كل بيت في الكوفة مأتم، سواء أولئك الذين نزفت جراحاتهم في صفين، أو أولئك الذين لم ينجوا من شفرات سيوف علي وأصحابه في سهل الحمراء.

- يجب الاحتراز من هذه الأفاعي الجريحة.

كانت الأحاديث التي يسمعها ميثم بعد حرب النهروان تقلقه أكثر. فبعد تلك الحرب لم يعد أحد يتورع عن قول ما يريد، وصار الناس قليلًا ما يأتون إلى المسجد. أما من يأتي منهم فكان يتجاسر ويتحدث بوقاحة وصلافة؛ ولولا حرمة سفك دمائهم في المسجد، لسلّ خنجره وأرداهم بنفسه. كان ميثم شاردًا في تفكيره، لكن سعال رستم أرجعه إلى نفسه. لقد جرح رستم في معركة صفين، ولم يكن يعتقد أنه سينجو من ذلك الجرح؛ لكنه أصبح مقعدًا ومتبرمًا، خصوصًا، بعدما فقد زوجته. لم يعد

السعال يفارقه، ولا حتى الأنين، فهما رفيقاه من أول الليل حتى الفجر، إذ لم يكن يوافيه النوم سوى لحظات قليلة قبل صلاة الفجر.

مشى ميثم على رأس قدميه. أراد أن يعبر بهدوء من أمام الغرفة كي لا يقلق راحته، فلا يضطرب سكونه، وإذ...

- إلى أين يا ميثم؟

توقف ميثم هنيهة...لم يكن يعتقد أن رستم يدرك ماذا يجري في الكوفة.

- أنا ذاهب إلى المسجد.

- انتبه إلى نفسك! فالخطر داهم. اصبر حتى يمضي قسط من منتصف الليل، وتذهب العتمة، ويستنير الجو أكثر.

- إن أرواح العباد بيد الله.

عاد السعال إلى رستم مرة أخرى. أما ميثم فتوجه إلى النافذة الخشبية، وقد أزاحت الريح الستار الذي كان معلقًا فوقها.

- سمعت أن الرجال الملثمين قد ازداد عددهم، وأن رجالًا يظهرون بلباس النساء في الكوفة...

ضحك ميثم وقال: «الشائعات كثيرة يا عم! ولا يمكن التخلي عن الحياة بسبب حفنة من الأراجيف و...».

- على كل حال أنا قلق، وشيرين و.....

- ما هذا الحديث يا أبا الفوارس؟! إن مدينة الكوفة ليست

صغيرة، وأصحاب علي ما زالوا أحياء، ولا أحد يجرؤ ما دام علي في الكوفة...

- ماذا أقول؟ ما زلت شابًا يا ميثم!

توكّأ رستم على الجدار، وتناول عصاه الخشبية يريد أن يقف؛ لكن السعال قطع عليه همته وأضعف قوته. بصعوبة شديدة استطاع أن يوصل نفسه إلى النافذة. بدا وجهه، تحت ضوء القمر، أكثر شحوبًا وإرهاقًا، أما ذلك الجسم الضخم فقد صار في خبر كان؛ لقد ذاب ونحل.

-أنا أشتمّ رائحة سمكة نتنة؛ رائحة العفونة قد ملأت أرجاء الكوفة يا ميثم! ليتك كنت بائع سمك.

حاول ميثم أن يساعده على الوقوف.

- من الأفضل أن تستريح مع هذا الجسد النحيل. إن الصيام في هذا الشهر الحار قد أضعفك أكثر.

- يعني أنا أهذي؟

- متى قلت هذا الكلام؟

لم يكن رستم يملك القدرة على الوقوف. ساعده ميثم حتى أجلسه على بساط من الحصير، وألقى فوق قدميه لحافًا قديمًا ملونًا. تأوه رستم وقال: «صحيح أني لم أعد أستطيع الذهاب إلى سوق الكوفة مثل السابق؛ لكني أشمّ رائحة المؤامرة يا ميثم. لقد أدركت ذلك منذ اليوم الذي عدت فيه من صفين».

سكت رستم لحظة ثم تابع والحزن باد عليه: «عمل علي

أصبح صعبًا للغاية».

وضع ميثم متّكأً خلف ظهر رستم، وساعده حتى اضطجع على الأرض.

- بارك الله فيك. ساعدني حتى أتيمم، فأنا لا أستطيع الوضوء مع هذه اليد المليئة بالجراحات.

أنهى تيمّمه ثم قال بحسرة: «كنت أود مثلك أن أكون في المسجد قبل أذان الصبح، لكن من المؤسف...».

- أجرك ليس أقلّ من أجر الأشخاص الذين في المسجد...

- ماذا تقول؟ أنا مشتاق لرؤية وجه علي وضحكاته؛ هذا إن

كانت الضحكات ما زالت تُرى على وجهه هذه الأيام!

قال تلك الجملة واختنق بعبرته.

لم يُردف ميثم شيئًا. توجه نحو الباب. وقف عند العتبة.

- أنا لا أقول لك لا تذهب، ولكن تذكر أولادك. تذكر أن شيرين ليس لها أحدٌ غيرك.

كان ميثم يشعر بغصة رستم، ويعلم كم أصبح رقيق القلب هذه الأيام. كانت الدموع تترقرق في عينيه عند أدنى ذريعة. وضع ميثم قدمه في العتمة ومشى من غير أن يجيب. عند نهاية الزقاق الضيق، توقف هنيهة؛ لقد هزه بكاء رستم. لم يكن قد رآه يبكي حتى الآن. أراد أن يرجع؛ لكنه انعطف بطريقه، وذهب في جهة أخرى.

كان ظلّ الجسر الخشبي يُرى في ماء النهر. لكن ميثمًا لم يعبر الجسر؛ بل تابع سيره بجانب النهر، وانغمس في العتمة وحثّ الخطى. إلى أين يذهب؟. هو نفسه لا يعلم. ما يعلمه فقط، أنه ينبغي أن يمشي. لم يقر له قرار، فبكاء رستم قد أشعل النار في قلبه. كان يعلم أنّ الليل وحده يمنحه السكينة؛ خصوصًا، إذا كان القمر ينير كل مكان. كان يرغب فقط في المشي حتى أذان الصبح؛ يطوف في الأزقة، ويجول من حي إلى حيّ، ولعله يزور دار أمير المؤمنين أيضًا، أو يذهب إلى السوق، وهناك، يستمهل نفسه لحظات أمام كل دكان حتى يطلع الفجر. لكن قدميه لم تطيعاه. فجأة، رجع إلى ذاته، فوجد نفسه في حي بني أسد. كان السكون يغمر المكان، لم يكن يسمع أي صوت. توجه إلى ميدان

الكناسة. وقف في وسط الميدان؛ المكان الذي أحزنه وأفرحه، فهو المكان الذي بيع فيه مقيد اليدين والرجلين وهو فتى، والمكان الذي تذكر فيه ماجدة عندما ولد طفله صالح، وكان سببًا في بقاء ولده وزوجته على قيد الحياة. وفي هذا المكان نفسه قال له علي ذلك السرّ العظيم، في تلك الليلة المظلمة، السر الذي لا يعلمه إلا هو وأمير المؤمنين فقط، السرّ الذي بدل حياته. لم يصدق ميثم في البداية. كان ميثم قد سأل أمير المؤمنين:

- أيحدث ذلك قبل رحيلك من الدنيا أو بعده؟

حينها تبسم علي فقط، وأفهمه أنه سيصل إلى ذلك مع الصبر. وهو الآن ينتظر. كانت أيامه السعيدة تمضي، وستأتي الأيام التي تجرعه المرارة. لم يكن يعتقد أبدًا أن الزمان سيتغير بهذه السرعة. ولعلّه هو أيضًا قد تغير. لقد أصبح يشار إليه بالبنان؛ فالقاصي والداني يعرف علاقته بعلي، وقربه منه. كان بعضهم ينظرون إليه بتحسر، وآخرون ينظرون بكره كأنه فرض نفسه على عليّ. كل شيء قد حدث فجأة. هو الذي وجد عليًا، أو خليفة المسلمين وجده! كانت علاقته بأمير المؤمنين إلى حدّ أنه لم يعد يطيق فراقه؛ ففي حرب صفين، مرت سنة ولم يكن يعلم شيئًا عنه، وهذا ما جعله يتألم كثيرًا، لذلك أقسم أنه لن يفارقه، وسيرافقه في كل حرب يذهب إليها، أو سفر يقصده، مهما حدث. أما الآن فهو مضطرب جدًا، وقلق على علي إن أصابه مكروه؛ فسيموت أو يصبح مثل رستم.

لم تكن الأفكار المضطربة تدعه يرتاح. مشى ببطء، وتوجّه

نحو نخلة كانت تبدو، في ظل نور القمر، أكبر مما هي عليه واقعًا. كان يشعر دائمًا، منذ أن سمع ذلك السر من علي، أن تلك النخلة أكبر مما تبدو عليه، مع أنها في الحقيقة أقصر من جميع النخلات من حولها. اقترب من النخلة، مسح بيده على جذعها، وعانقها بحنان طفولي، ثم وضع خده على قشرها الخشن، وبكى. كان جذعها السميك يدل على عمرها الطويل، وكانت أغصانها وأوراقها اليابسة تقول إنّ عمرها قد أشرف على النهاية؛ لكن لا أحد كان يهتم لأمرها.

- قف مكانك لأرى!

رفع ميثم رأسه، فرأى شخصًا متشحًا بالسواد يعبر راكضًا من أمام دار ابن حريث. تسلق الرجل الجدار، واختفى داخل الخربة. ثم بعد ذلك شاهد جنديًا يقف وسط الميدان. بدا الجندي متحيرًا، لا يعلم إلى أين فر ذلك الرجل. عرفه ميثم لكن لم يكلّمه.

عندما ذهب الجندي، وقف ميثم قرب النخلة، وصلّى ركعتين، ثم نهض ودار حولها، وقال بصوت خافت: « لم أكن صديقًا سيئًا لك. هل كنتُ كذلك؟». ثم مسح دموعه؛ لكن قلبه لم يهدأ بعد. تابع حديثه : «أنت بنفسك سمعت حديث أمير المؤمنين في تلك الليلة. أعلم أنك مشتاقة لتلك اللحظة أيضًا. أنا أكثر منك اشتياقًا. إذًا نحن الاثنان ما علينا إلا الصبر. لكن ليتنا كنا نعلم متى ستحدث تلك الواقعة». ثم مسح يده على جذعها بحنان، وعانقها مثل المفتون، وقبّلها. لو رآه أحدٌ لاعتقد

أن الرجل الفارسي قد جنّ.

بعد ذلك، جلس ميثم على الأرض، وراح يزيل بكف يده الأشواك والحشائش من حولها، ثم وقف مرة ثانية للصلاة. كان القمر يلاعبه من خلال سعف النخلة اليابس، بينما هو يركع ويسجد. عندما أتمّ صلاته، شمّ جذعها، وقال: «لا يوجد أحد لأتحدث إليه، لكنك أنت هنا. فهل تصدقيني؟ بالتأكيد يجب أن تصدقي. فهل حدث إلى الآن أن تكلم عليّ كلامًا ولم يحدث؟ وهذا أيضًا صحيح يا صديقتي، سوف يحدث!». ثم تبسم وعيناه غارقتان بالدموع، وقال: «يجب أن نصبر».

كانت السماء صافية، والنجوم في كبدها تموج وتتلألأ، بينما ميثم لا يخلع قلبه من النخلة؛ عانقها مرة أخرى بعشق، وقال: «أما أنا فقلق جدًا. أتسمعينني؟ قولي شيئًا. إنها كلمات رهيبة يرتعش لها قلب كل سامع». ثم تابع والغصة في حلقه: «لقد حدثني عليّ بعاقبتي؛ لكنه لم يقل شيئًا عن نفسه. تحركي! قولي شيئًا. إني أعلم أن بينك وبين علي أسرارًا».

كانت أوراق النخلة الجافة ترتعش مع هبوب الريح، والدموع تجري من عينَيْ ميثم، وتبلّل خدّيه.

- تالله إني لا أطيق فراق علي أمير المؤمنين.

علا شهيقه في العتمة.

لم تمضِ لحظات حتى سُمع صوت صرير، وإذ بباب يفتح.

- هذا المجنون مرة أخرى. ماذا تريد أيها العلج أمام بيت داري؟

كان عمرو بن حريث. وقف أمام باب داره وهو يرتدي لباسًا أبيض طويلًا كأنه خيال شبح.

- لماذا تقلق راحتي أثناء الليل؟ سوف أشتكيك إلى الخليفة. بالطبع، عندما يصبح صديق الخليفة رجل عجمي، تصبح راحتنا بهذه الحال.

كان ظل ابن حريث الطويل ممتدًا على جدار بيته، بخلاف شجرة النخيل.

- غدًا سأقطع هذه النخلة، حتى لا أرى بعد ذلك هيئتك المشؤومة.

- لن تفعل! أنت حقير يا ابن حريث!

كان ميثم شارد الذهن. نهض ومشى بهدوء. كان يشعر بلسعة البرد أكثر وثوبه ملتصق بجسده. مشى إلى الطرف الآخر من الميدان، ثم توقف، ورجع مرة أخرى باتجاه النخلة. أيمكن أن يقطع ابن حريث شجرة النخيل؟ لكن ماذا سيحل بالسر الذي ذكره صهر النبيّ؟ لم يكن ليصدق أن شخصًا يمكنه أن يقتلع أنيسه. إنه يؤمن بعليّ.

# **12**

- انظر إليه! إنه محزون. يندب كمن فقد أمه.

- المسكين! لقد جنّ.

لو وجد شخص مكانه، لكان لديه النهاية نفسها.

- قليلًا ما كان يهذي في زمن عليّ. البائس إنه مريض، ولا ينفك يخبر عن مصير الآخرين.

- لعل عليًا علمه شيئًا من السّحر.

- على كل حال، فإن كثيرًا مما قاله كان صحيحًا حتى الآن.

- كم أنتم بسطاء. هذا من علوج السوق. إنه يأخذ الكلام الذي يسمعه منكم، فيفصّله وينمّقه، ثم يرجعه إليكم، هل تريدون أن أمتحنه؟

- لا. لا يمكن أن ننكر هذا. لقد علمه علي بعض الأسرار.

- إذًا لهذا السبب يقولون له: «مستودع أسرار علي».

ضحك رجل منهم وعلت قهقهته، ثم أشار إلى ميثم وهو يقترب كالهيمان.

- تعال إلى هنا يا ابن الأعاجم!

توقف ميثم - لم يكن أحد في حياة أمير المؤمنين يتجرّأ على إهانة الآخرين؛ حتى لو كان أسود وغريبًا- رفع رأسه. كان شاحب الوجه، غائر العينين، وخصلات شعره أكثر بياضًا مما يجب أن تبدو على رجل أربعيني. مع ذلك كله، لم تفقد عيناه المسوّرة بالرموش الطويلة بريقها ونفاذها.

- يقولون إنك مطّلع على أخبار الغيب، وتتعامل مع الجنّ؟

تكلم. هل علمك علي هذه الأمور، أم هي من عندك؟

كان الرجل يتحدث عن صهر الرسول بحقد دفين. غير أن ميثمًا انحرف بطريقه ولم يجب. ثم تقدم رجل آخر في منتصف العمر. بدت لحيته شحيحة، ليس فيها سوى بعض خصلات مبعثرة من الشعر. أمسك بيد الرجل الحقود، وأخذه إلى جانب جدار دار الإمارة، وقال: جميعنا مستاؤون من فعلة ذلك الخبيث الذي شجّ رأس علي؛ لكن من باب المصلحة...

- أي مصلحة يا عمرو! أربع سنوات مضت من حكم علي، مرت علينا كأنها دهر. كانت كلها حروبًا وسفكَ دماء، وخيولًا وسيوفًا ونحيبَ نساء وأطفال. أنتم قولوا؛ مَنْ مِن أهل الكوفة عاش هانئًا مرتاحًا...

- أنت كنت جالسًا في دارك و....

- أنا أقول هذا من أجلكم. فأنا منذ اليوم الأول لعلي تنحيت جانبًا، واتخذت لنفسي طريقًا مغايرًا؛ لأني كنت أرى أن أحداثًا سوف تقع . كنت أرى عويل النساء، ومقاتل الشباب، وأرى المعدمات الأرامل، والجرحى الذين يئنون طوال الليل.

- لم يبق إلا أن تكون دائنًا أيضًا.

تبسم الرجل باستهزاء وقال: «أنا لا أحب قتل الأخوة، وما كنت لأرغب بسل السيف في وجه أخي المسلم».

- أيّة ذريعة جيدة هذه! يأتون ثم يغيرون على دارك

ويهدمونها، بينما تقف أنت مستسلمًا لأنهم مسلمون. من المؤكد أن بعض غارات معاوية... من أجل ذلك وضعت يدك في يده، وها أنت تعتقل مخالفيه وتقيدهم بالسلاسل، وتجرهم إلى السجون.

جمع ابن النمير شفتيه وقال: «صحيح أني لم أشارك في الحرب؛ لكن هؤلاء متمردون، والكوفة بحاجة إلى الأمن والهدوء».

ضحك الرجل ولم يقل شيئًا.

ثم أشار الحصين بن النمير إلى ميثم وقال: «لكن لماذا سلّط هؤلاء الأعاجم علينا؟»

- هذا كلام آخر. على كل حال ما مضى فقد مضى، وأمير المؤمنين أصبح تحت التراب مع حسناته وسيئاته.

تقدم رجل يلبس عباءة مطرزة. كان حتى اللحظة ما زال ساكتًا. قال ضاحكًا: «كنا نريد أن نسمع شيئًا فرأينا شيئًا آخر. ألم يكن من المفترض أن نستمع إلى حديث سالم...».

- ميثم بالنسبة إليّ هو»سالم». فاسم سالم أفضل. ماذا يعني ميثم؟ اسم بدون مسمّى ولا معنى. ثم تابع باستهزاء: «الضارب!»[[11]](#footnote-11).

نظر ميثم إلى الرجل بغضب. كان يرى الحقد في ثنايا وجهه،

وفي خطوط جبهته. أراد ميثم أن يقول شيئًا؛ لكن المسنّ سبقه إلى الكلام: «لم أكن أقصد التطاول على الخليفة الشهيد، سواء ميثم أو سالم». ثم أشار بإصبعه السوداء الطويلة إلى الجماعة الواقفين في ظل جدار دار الإمارة، وراح يشير إليهم واحدًا واحدًا، وقال: «لم يكن عليّ يأخذهم بالحسبان، لكنهم يحبّون أن يعرفوا ماذا كان يعتقد بهم». ثم قطب حاجبيه والتفت إلى الرجال الذين كانوا ينتظرون باهتمام، وقال: «جميعنا نعلم الماضي. لكنهم يقولون إنك تخبر عن المستقبل. ألا تحبون أن تعلموا ماذا سيحل في الآتي؟ لعل أحدكم يصبح حاكمًا، أو لعل...». بعد ذلك تقدم من الشمر، ووقف في مقابله. وقال: «هذا ابن ذي الجوشن، على سبيل المثال. أنت يا ابن ذي الجوشن معلم قرآن، وتعلّم أولاد كبار أهل الكوفة كلام الله، وتتباحث معهم من الصباح حتى الغروب ليتعلموا كلمة. ألا تحب أن تعلم أي غرفة أعدوها لك في الجنة؟».

تبسم ميثم باستهزاء، ولم ينطق بكلمة.

- لعلي قلت كلامًا سيئًا حتى ضحكت؟

نظر ميثم إلى جدار منزل جعدة بتأسف. كان قسمٌ من الجدار قد انهدم إلى الأرض، فأصحاب معاوية هدموه بعدما تسلّط على مدينة الكوفة.

- لماذا أنت ساكت؟ ألم يقل صهر النبي لك شيئًا فيما يخصّ هذا الرجل المستقيم صاحب اللسان الفصيح والمعبر؟

ارتجفت شفتا ميثم. نظر إلى الشمر بغضب، ثم تنحنح. تطاول الشمر بعنقه، ومد صدره إلى الأمام، ثم مسح بيده على لحيته الطويلة التي صُبغت حديثًا بالخضاب، ليسمع صوت ميثم.

- احترس يا رجل من يوم تقطع فيه رأس ابن رسول الله من القفا.

عندما سمع الشمر كلام ميثم، تقدم خطوة إلى الإمام، وقبض على يديه، وقال مزمجرًا: «مجنون».

- ماذا تقول أيها الخبيث الفارسي؟ ابن ذي الجوشن معلم قرآن.

- أحيانًا نقرأ القرآن، وأحيانًا نضعه فوق الرماح، وأحيانًا أخرى نقتل نبيًا بحكم كتاب الله.

حديث ميثم جعل الصمت القاتل يسود المكان.

كان الرجال يريدون أن يسألوا؛ لكنهم تأخروا إلى الوراء خوفًا من أن يحدّث ميثم عن أعمالهم الخفية. فكلام ميثم كان مفاجئًا إلى حد كبير، أذهل الجميع وجعلهم في حيرة. جرّ ميثم حذاءه القديم على الأرض، وسار مبتعدًا عن القوم، فيما ظل كبار رجال الكوفة في حيرة من أمرهم. ماذا يقولون!.

- ألم أقل لكم لا تمازحوا هذا المجنون؟ إنه يهذي.

- لا ملامة عليه إن كان كذلك. فعليّ ليس هنا حتى يمشي

إلى جانبه بغرور، ويعبر السوق معه كتفًا إلى كتف، ويكون في الليل حارسًا من شرطة الخميس، ومن خاصة وكلائه. لا تعلمون كم كنت أرتعد، ويقشعر بدني عندما كنت أرى عليًّا يجلس على الكرسي في دكان هذا الفارسي، عابد النار، ويبيع التمر بدلًا منه.

- عندما كنا لائقين بالقيام بأعمال أهل الكوفة، كان علي يكلف رجلًا فارسيًا بالأعمال الهامة. أليس هذا عارًا على العرب؟

- هذا المجنون يريد أن يسوّق لكلامه بالكذب.

- هذا العلج ينتقم منا لسكوتنا، وعدم دفاعنا عن علي. يريد أن يعذبنا ويؤذينا، خصوصًا، بعد تحذيره ابن عباس حتى لا يخدعه معاوية، ولا ينشق عن الحسن بن علي.

- لكن هل كان كلامه كاذبًا؟ فابن عباس قد غرته دنانير معاوية. لقد انشق عن الإمام الحسن والتحق هو ومن معه من الجنود بمعاوية؛ وبذلك فرق جمعنا. نحن أهل الكوفة لم يسبق لنا أن تعرضنا في الماضي إلى هذا القدر من الإذلال. أنتم قولوا. من منكم لا يشعر كل ليلة أن سكّين معاوية مغروس في حلقه؟

-أنا لا أعلم. لكني أفهم أن الجميع قد تعبوا وكلّوا من الحرب، والناس تريد الراحة والهدوء، سواء أكان علي أم الحسن أم معاوية. أما الآن وقد قضي الأمر، فمن الأفضل أن نسلك مع الآخرين ونسير مع الجماعة.

نهض رجل مسنّ كان يجلس في زاوية يتثاءب. هز برأسه، ومشى وهو يضرب بعصاه الأرض، ويتوكأ عليها، تاركًا خلفه القيل والقال، وضجيج الرجال، فكل واحد منهم يقول شيئًا...

# **13**

جلس صالح على كرسي صغير. كانت أشعة الشمس تسطع بشكل ملائم على التمر البرسي، فيزداد بريقه الذهبي لمعانًا. عندما رأى والده يجلس على الكرسي ساكتًا، غارقًا في تفكيره، كسر جدار الصمت قائلًا:

-لماذا يتحدث الناس بهذا الكلام يا أبي؟

- وماذا يقولون؟

ابتلع صالح ريقه، والغصّة في حلقه. رفع ميثم رأسه، ثم تبسم معقّبًا: «أني مجنون».

احمر وجه صالح

- ليس هذا ما قصدت.

- أنت لا تظنني مجنونًا، أليس كذلك؟

- أبي!

تلاقت عيون الأب والابن، وتسمّرت نظرات أحدهما بنظرات الآخر. كان ميثم يرى الحزن في عيني ولده العسليتين، وهما مغرورقتان بالدموع، وأيضًا يعلم أن تلك الغصّة منذ شهور وهي في حلق ولده الشاب. تبسم ميثم، وانفجر صالح بالبكاء؛ حتى ملأ بكاؤه أرجاء الدكان. عندئذ نهض ميثم واحتضنه، وراح

يداعب شعره ويلاطفه. كانت الشهور تأتي، والسنوات تمضي، وصالح يكبر ويزداد طولًا وشبهًا بأبيه. بينما كان يحتضن ولده، ويمسح على كتفه، ويطلب منه أن يبعد الحزن والغم عن نفسه حتى يهدأ ويرتاح، راح يحدثه عن ماضيه. في تلك اللحظات أحسّ ميثم أن ولده يشعر بنفس ذلك الشعور الذي كان لديه، عندما دخل الكوفة وهو صغير. تمامًا كالحالة التي كان يحسّ بها وهو تحت تلك النخلة. حينها كان قلقًا، ولم يكن يعلم شيئًا عن أمه وأبيه. والآن أيضًا، صالح يشعر بالقلق من تلك الأحاديث التي تجري على ألسنة العرب في ظهر أبيه. فهم ينعتونه بالمجنون. كم تشبه الأيام بعضها بعضًا! كأن ذلك حدث بالأمس؛ حين كان يمشي خائفًا خلف ماجدة، عندما لحقه ذلك الولد العربي وضربه بقبضة من الطين، فالتصقت على رقبته. لقد كبر نظير ذلك الولد، ولم يزل يذكر عليًّا بالسوء. لقد أرجعه ولده إلى الماضي البعيد، إلى الأيام الغابرة. تأوه ميثم بحسرة وتابع حديثه بصوت خافت. حدّثه عن تلك الأيام منذ

أن عرف عليًا، وكم كان الأمر عجيبًا، إلى أن فقده، وكان الأمر أعجب ولا يصدّق. لم يكن يفكر بهذه الأيام مطلقًا. لم يكن عبثًا أن عليًا كان يواسيه، ويطلب منه أن يصبر. لقد فكر في كل شيء إلا في البعد عن علي. لم يكن يتصور أن يومًا سيأتي ويفترق عن علي، أو أن تبدل الكوفة جلدها بهذه الصورة مرة واحدة. حدثه عن صفين، وكيف لم يكن بمقدوره أن يرافق عليًّا في الحرب لأجله ولأجل جدّته العجوز. تحدث عن حسرة جده رستم، وعن النهروان، وكيف ذهب مع علي ولم تكن حربًا؛ بل كانت مناوشات خفيفة وانتهت. ثم عادوا إلى الكوفة للاستعداد للحرب الكبرى؛ حرب تعيين المصير، وبناء المستقبل، لكن فجأة انقلب كل شيء. من أين ظهر ابن ملجم في سحر تلك الليلة في شهر رمضان؟! لم يكن يصدق أن أحدًا يجرؤ على أن يضرب عليًّا ويشج رأسه. لم يكن ليصدق لولا أن رآه بعينه. عندما وصل إلى علي، وسط كل ذلك الضجيج، رآه غارقًا في دمه، وعلى جبهته الدامية الحمراء عصابة صفراء، وهو متكئ على ولديه الحسن والحسين، بينما هما ممسكان بذراعه. حينها أحسّ بأن العالم قد خرّ على رأسه وانهدم. لقد أخبره أمير المؤمنين أن لحيته ستخضب من دم رأسه؛ لكنه لم يقل أين سيحدث ذلك.

كان ميثم دائم القلق من أن يفقد أمير المؤمنين في الحرب، ولكن... ثم شهق بالبكاء.

- أتبكي يا أبي؟ كان ميثم يرى ولده من خلف غشاء دموعه.

استدار بوجهه، وهز رأسه؛ لكن كتفيه كانتا ترتعشان...

علا بكاؤه مرة أخرى. لكن في هذه المرة طلب من ولده أن يذهب إلى البيت، ويتركه وحيدًا لبعض الوقت.

كانت عادته كلما فكر بعلي، أو سمع عنه شيئًا جرت دموعه على خدّيه. لطالما خرج من داره في الليالي حافي القدمين، يمشي في الأزقة كالمتحيّر. كان الجميع يعرفون أن الرجل الفارسي يتجول في الكوفة حائرًا. لم يكن بعضهم يلومه؛ بل كانوا يتأسفون ويدعون له بالسلامة والعافية. أما بعضهم الآخر فكانوا يرمونه بالحجارة ويطردونه من أمام بيوتهم. ومع ذلك، كان ميثم هادئًا ووديعًا مثل الحمل. كان يروح ويجيء، ويتأمل الجدران أحيانًا، يحدق بها بألم وحزن، وأحيانًا أخرى يكلّم العابرين، فيهزّون رؤوسهم متأسّفين، ويستمعون متعجبين إلى حديثه إذ لم يفهموا غايته. على الرغم من ذلك، كان الجميع في السوق يقدرونه ويحترمونه، ويعدّونه كبيرهم، كما دأبهم في السابق، فإذا ما حدثت مشكلة بين أهل السوق، ذهبوا إليه واستمعوا إلى حكمه ويقبلونه.

كانت الأيام تمرّ صعبة وشديدة، خصوصًا على العجم والعبيد. لقد عاد العرب مرة أخرى يأخذون سهمًا أكبر من بيت المال، ولم يكونوا يسمحون لغير العرب بالدخول إلى مساجدهم؛ لقد أمر الخليفة بذلك. حتى وصل الأمر إلى أنهم فرضوا عليهم لباسًا خاصًا، حتى يميزوهم عن العرب، لباس من خيش الكرباس[[12]](#footnote-12) الذي لا لون له.

كان الأمر صعبًا على ميثم أن يرى كل ذلك القهر والإذلال الذي يتعرض له الفُرس، ولا سيما بعد أن منحهم علي منزلة وقيمة محقّة. لذلك، عندما كان يشعر بالضيق أحيانًا، إلى حد لا يستطيع أن يتحمله، يخرج من الكوفة ويذهب إلى نهر الفرات، ليجلس عند شاطئه، ويتأمل تلاعب ظلال قصبات الناي وهي تتمايل في الماء المتلاطم. وأحيانًا، يركب أحد المراكب إن وجد، ويدخل عمق الفرات، ليذهب بعيدًا عن كل شيء، أو يصطاد بعض الأسماك إن استطاع، ليأخذها إلى عياله كرمى لذكرى رستم. كان يتمنى لو ينقضي عمره بسرعة، ويرى تحقُّقَ ذلك الأمر الذي أخبره به علي.

من جهة أخرى، فإن أهل الكوفة قد انفضّوا من حول الحسن بن علي سبط الرسول، وتخلّوا عنه بكل سهولة، وتركوه وحيدًا حتى أجبر على الصلح مع معاوية، إلى أن وصل الأمر بعد ذلك أن يدس معاوية السمّ له، ويقتله من غير أن ينطق أحد منهم بكلمة. أما الابن الآخر لعلي فكان في المدينة، وقد انقطعت عنه الأخبار لمدة طويلة؛ إلا في أيام الحج حيث كان يذهب إلى مكة، ويلقاه هناك للحظات قليلة، فيشكو إليه همّه وحزنه. لقد أثقل الهم والحزن قلب ميثم، حتى صار هرمًا...

لم يكن ميثم يطيق الجلوس في الدكان، لذلك، كان يطلب من ولده صالح أن يجلس مكانه، ثم ينطلق وهو يخط أرض السوق بقدميه، ويذهب خارج المدينة. فالطبيعة وماء نهر الفرات وحدهما يمنحانه الهدوء والسكينة...

ذات يوم، بينما كان يسير بهدوء في طريق ضيقة جانب النهر، يتأمل صفحة الماء، وإذ به يرى جار ماجدة. عندما التفت إليه الرجل المسنّ أشرقت عيناه وسرّ لرؤيته، وقاد قاربه إلى ساحل النهر. لم يكن الرجل قد اصطاد سوى عدد قليل من السمك.

- ماذا تفعل هنا أيها الولد الفارسي؟

كان الرجل يناديه بهذا الاسم عندما كان ميثم في بيت ماجدة. لم يكن يناديه باسمه «سالم».

رفع ميثم رأسه وأجابه قائلًا: «ما أخبار أمي؟»

- تقصد ماجدة؟ المسكينة أصبحت عجوزًا هرمة. لقد انطفأ النور في عينيها. أما أنت فماذا تفعل هنا؟

- عينايَ على الأيام؛ متى ستصل إلى خاتمتها.

- الأيام أم أنت؟

- عندما لا أكون لا توجد أيام.

- تعال اركب معي في هذا القارب حتى ندور في البحر الواسع، فأنا أعلم أي أيام صعبة مرت عليك!

دفع الرجل العجوز بمركبه إلى ساحل الفرات، وأوغله في القصب، حتى اخترق رأسه وسط القصبات، ووصل قريبًا حيث يقف ميثم. تقدم ميثم وأمسك بحافة القارب الخشبي، وصعد إليه، فيما القارب يتمايل يمينًا وشمالًا.

كان المجذاف يشقّ النهر، فينزلق القارب على صفحة الماء، ويبتعد عن الساحل. وكانت طبقات الماء تلتف فوق بعضها بعضًا

وتتداخل، فتدفع المركب إلى الأمام، شاقًا طريقه وسط النهر الواسع.

نظر ميثم إلى السماء، فشاهد سحابة سوداء داكنة قادمة نحوهما. ثم رفع الرجل العجوز مجذافه، وأخرجه من الماء تاركًا قاربه يتهادى ببطء.

- حسنًا أيها الولد الفارسي، حدثني.

تبسم ميثم من غير أن ينطق بكلمة.

- إن الأحاديث التي يطلقونها حولك قد أحزنتني، وجعلتني أتألم كثيرًا.

رفع ميثم كتفيه، معلنًا أنه ليس مهتمًّا بأقاويل الناس. كانت نظراته تلاحق تلك السحابة الداكنة.

- نرى أمثال هذه السحابة كل يوم. إن عملي هو صيد السمك، وأعلم أن في كل يوم...

- لكن الأمر هذه المرة مختلف.

كان يهب نسيم لطيف، ويزداد شدةً مع الوقت.

- أنا رجل البحر أم أنت؟ لا تغضب، فأنا لا أعرف التمور وأنواعها جيدًا مثلك. كذلك يجب أن تثق بي أيضًا، حتى...

- لكن الطوفان قادم.

- طوفان؟!

ضحك الرجل العجوز حتى بدا فمه الكبير خاليًا من الأسنان. لم يكن في فمه سوى ثلاثة أنياب سود.

- يجب أن نعود. هناك أخبار عجيبة ومذهلة في الطريق.

- ليس ضروريًا أن تتنبأ مرة أخرى!

أخذ ميثم المجذاف من المسنّ، وقال له: «يجب أن نعود إلى الساحل فورًا».

- لكن منذ لحظات تركنا الساحل.

- هناك طوفان قادم، ومعه أخبار سارّة.

تناول الرجل العجوز المجذاف الآخر، وغمسه في لجة الماء وهو متعجب. ثم نظر إلى السماء الداكنة التي كانت تدلهم كل لحظة أكثر فأكثر. أحس أنها مختلفة عن كل يوم.

- لعلك تقول الصواب، ولعل أفعالك عجيبة أيضًا مثل أقوالك.

ما إن وصل المركب إلى الساحل، حتى ضربت موجة في نهر الفرات، فقذفت المركب حتى منتصف القصبات، وكاد أن ينقلب.

- عجبًا لهذه الريح. من أين ظهرت؟

- إنها تحمل معها خبر الموت.

- الموت! أغثنا يا الله.

- لا تقلق! إنه خبر من طريق بعيدة، كنت أنتظره منذ زمن.

- من تنتظر؟

- أقسم بالله إن هذه العلامات التي حدّث بها مولاي علي. إنه خبر قادم من الشام.

- ما الذي جرى؟

- ذلك الخبيث الماكر أصبح تحت التراب.

ساعد ميثم الرجل حتى سحبا المركب إلى اليابسة. في تلك اللحظة هبت ريح سوداء شديدة، فماجت قصبات الناي وتداخلت فيما بينها. أما ميثم والرجل العجوز فقد امتنعا خلف المركب ولاذا به. كانت الريح تحمل معها كل شيء؛ الأشواك والأغصان وأعواد القصب اليابسة، وتأخذها في كل اتجاه، حتى أنها أخذت معها صوت الرجل.

- من الذي قُتل؟

- لم يقتل. لقد سلب عزرائيل روحه؛ إنه معاوية بن أبي سفيان.

ما هذا الكلام؟ إن معاوية في الشام، ونحن هنا قرب الفرات...

- أقسم بالله أن مولاي عليًا لم يقل كلمة واحدة كذبًا حتى الآن. إن علامات هذه الريح هي نفسها التي تحدث عنها سيدي أمير المؤمنين. لا تعجب يا أبا خالد، فعن قريب سوف يصل رسول من الشام ومعه الخبر.

كان أبو خالد مختبئًا تحت حافة المركب، ممسكًا بها بإحكام. عندما سمع ذلك، تمتم بشفتيه قائلًا: «اللهم ارحمنا هذه المرة».

# **14**

- أسرع يا أبا صالح! الآن يصل الجنود.

كانت شيرين تستمع إلى كلام زوجها باضطراب، والدموع تسيل على خديها، وطفلها الصغير عمران يصرخ ولا يقر له قرار.

وضع ميثم كيس الدنانير على حافة كوة الجدار، وتوجه إلى طفله الصغير. حمله وقبله، وراح يمسح دموعه بأطراف أصابعه العريضة، محاولًا إسكاته وتهدئته؛ لكن الطفل ظل يصرخ ويبكي دون توقف. في هذه الأثناء، كان صالح يقف عند عتبة الباب وفي يده خنجر.

- لماذا الخنجر يا بُنيّ؟

- أنا أيضًا سآتي معك.

- لا تقلق، فلن يحصل مكروه. من الأفضل أن تبقى، فأنت رجل البيت.

ارتفع صوت في الخارج يناديه باضطراب؛ إنه صوت ابن كميل، كان ينتظر قرب النخلة: «أقسمت عليك أن تسرع».

ظهرت بسمة لطيفة على شفتي شعيب. كان واقفًا بجانب النافذة، بالقرب من صالح.

- أبي؟

اقترب ميثم من ولده صالح. كان الأخوان صالح وشعيب يشبهان أحدهما الآخر إلى حد كبير، على الرغم من تباعد سنّهما. الفارق بينهما أن أنف شعيب كان أكبر قليلًا، ويشبه أنف جده الديلمي. بعد أن هدأ الطفل «عمران» قليلًا في حضن أبيه، أعطاه لزوجته، والتفت إلى صالح وقال: «بماذا تعتقد أن مجيئك سيفيدني؟». ثم تناول كيس الدنانير وأعطاه لزوجته شيرين، وقال: «فيه من الدنانير الحلال ما يكفي حتى تنفرج الأمور». قال لها تلك الجملة، ثم وضع قدمه عند عتبة الباب. غير أن صوت شيرين الحزين أجبره على التوقّف.

- إلى من ستكلنا؟

تبسم ميثم قائلًا: «الله»!

كانت شيرين تبكي بصمت، ودموعها تنهمر على بشرة يد عمران البيضاء الناعمة. تابع ميثم حديثه بلطف: «لا تقلقي، فكل شيء سيكون على ما يرام. اشكري الله أن بجانبك ثلاثة رجال أشداء. أما موتي فلم يحن بعد».

ارتفع صوت الرجل في الخارج مرة أخرى؛ صوت مضطرب يحثّه على التعجيل.

تناول ميثم قربة ماء كانت بالقرب من الباب، ثم التفت إلى شيرين لآخر مرة، وقال: «سوف تمضي هذه الأيام الصعبة، فلا تقلقي». كان يقرأ في عينَيْ زوجته الطافحتين بالدموع: «وكيف لا أقلق؟».

- سوف أعود. لن يستطيع أحد أن يصيبني بأذى؛ لكن الآن يجب أن أذهب.

كان ميثم يتكلم بعزم وثقة، وهذا الأمر يهدئ شيرين ويطمئنها. وكانت تعلم أن زوجها مؤمن بكلامه، وهي تثق به أيضًا. لكن ما العمل، فزوجها مجبور على ترك الكوفة، وهو في هذا العمر المتقدم، مع تلك اللحية البيضاء.

علا صهيل الحصان. كانت العتمة في الخارج تشتد أكثر فأكثر. بدا ظل الرجل على ضوء السراج ممتدًّا داخل الغرفة وهو يستعجله:

- يقول زائدة إن الجنود هذه الليلة سيأتون...

- كم تكثر من الكلام يا رجل! لن تسقط ورقة من شجرة إلا بإذنه وإرادته.

حمل ميثم طفله لآخر مرة، قبّله، ثم توجه إلى صالح. أخذ الخنجر من يده، وغمسه كالمسمار في شق الجدار، ثم وضع يده على كتف ولده صالح وهزّه، وضمّه إلى صدره، وقال: «أمك قلقة. اعتن بها جيدًا، لن يحدث أي مكروه. إن شاء الله سوف أعود». بعد ذلك توجه إلى شعيب، ركع قباله، أمسك أنفه العريض، وضغط عليه قليلًا، وقال: «كيف حال رستمي؟» ثم ضمه إلى صدره بقوة وحنان، وهو يقول: «أنت وصالح رجلا هذه الدار، فاستمع إلى كلام أمك». كان شعيب مذهولًا، فلم ينطق بكلمة واحدة؛ فقط هز برأسه الكبير. تبسم ميثم وقبله على وجنته، ثم نهض وتحرك نحو الخارج. في الخارج وقف هنيهة، وقال: «لا تذهب إلى الدكان لفترة يا صالح! لقد رتبت كل شيء».

كانت هذه آخر كلماته.

وضع قدميه في العتمة ومشى مبتعدًا، وهو يتناول خرقة من القماش كانت على كتفيه، وضعها لثامًا على وجهه، ثم مضى خارج الدار. لم يبتعد كثيرًا حتى سمع صوت بكاء شيرين. ارتجف قلبه لبكائها؛ لكنه ما رجع. قبض على يديه، وسار خلف ابن كميل الذي كان يتقدم في سواد الليل منغمسًا في عتمته.

رفع الحصان رأسه وصهل محمحمًا. كان ابن كميل قد سبقه وأخذ الحصان إلى الجهة الأخرى من الجسر ليسقيه الماء. رجع ابن كميل قليلًا إلى الوراء، ورمى ببصره الزقاق، فلم

يرَ أثرًا للجنود. لقد أصبحت أوضاع الكوفة أصعب بكثير منذ أن جاء خبر رفض الحسين بيعة يزيد. فأكثر رجال الشيعة قد زُجّوا في السجون، حتى أنهم كانوا يؤخذون على التهمة والظنة، فكان يخشى على كل من كانت له ذات يوم صلة بعلي وأصحابه، فيضطر إلى ترك داره والهرب إلى خارج الكوفة، أو الالتحاق بقبيلته في أقاصي الصحراء البعيدة.

وضع ميثم رجله في الركاب، واعتلى ظهر جواده، ثم تناول الرسن من الرجل. صهل الحصان صهلة خفيفة، وانطلق به نحو الجسر الخشبي.

- أنتظرك بعد صلاة الصبح في تلك الجهة من النخيلة.

انطلق الرجل مسرعًا. كان ميثم يسمع صوت قدميه وهو يبتعد راكضًا.

انعطف الحصان بطريقه ودخل زقاقًا كان خلف داره تمامًا. يجب أن يدور حول المدينة، ويلتف بجانب النهر الكبير، ويصل إلى بساتين النخيل عند مفترق طرق القادسية. أثناء الطريق، بينما كان يمرّ في حي قبيلة مراد، سمع أصوات وقع أقدام الجنود. كانت القناديل قد صبغت الجدران بلون الحناء. أخذ حصانه إلى زاوية إحدى الخرابات، وراح يداعب شعر عُرفه؛ بينما الحيوان يدق الأرض بحوافره وهو مضطرب. نزل ميثم عن ظهر جواده، أمسك بفمه، وأخذ يمسح على أنفه ورأسه؛ والحصان يحمحم ويصهل صهيلًا خفيفًا.

مضت لحظات وميثم ينظر إلى ضوء خافت كان نوره يتضاءل

رويدًا رويدًا. عندما مضى الجنود، ركب حصانه وسار بخلاف مسيرهم. كان الزقاق يعبق برائحة بقايا الزيت والصوف والقصب المحترق في المشاعل.

لم يزل الليل في أوله؛ لكن أكثر الناس كانوا قد خلدوا إلى النوم، فلا أصوات تصدر عن النوافذ. لا صوت لأب، ولا بكاء لطفل. لكن على الرغم من ذلك، لو أنصتّ جيدًا لسمعت صوت اجترار الإبل من خلف جدران الحظائر المرتفعة، ناهيك عن نباح الكلاب الشاردة التي كانت تسمع بين الحين والآخر، وتزيد من رهبة العتمة ووهمها. ولعل بنات آوى هي التي كانت تعوي بحرقة هكذا. كل صوت في تلك الليلة كان حادًّا ومؤذيًا؛ فلو كان رستم حيًّا لقال: لعل أحدهم قد مات، أو لعل كبيرًا من كبار أهل الكوفة سيدفن غدًا. أحاديث يمكن أن تكون صحيحة. وهو يعلم بأن رستم يميل قليلًا إلى الأساطير، ويحاول أن يستخرج شيئًا من أي حادثة خيالية.

كان القمر ينحّي قطع السحاب جانبًا، وينشر نوره الأبيض على الجدران الطينية. أما شجرات النخيل التي تطاولت على الحيطان، فقد قدّت بظلالها الطريق نصفين، فبدا الطريق تمامًا كالسلّم. فلم يكن يدري ميثم أيصعد منه مع حصانه أم ينزل. كان شارد الذهن. لعلها أيضًا كانت درجات عمره التي عبر أكثر من نصفها، والآن سيقف عند آخرها؛ فعمره الآن قارب الخمسين، أمضى منه أكثر من ثلاثين سنة ونيفًا في هذه المدينة؛ منذ أن كانت الخيام منصوبة في هذه البراري الحمراء، وكان

العرب متخالطين ومتداخلين، لا يفصل بين حياتهم سوى تلك الخيام المنسوجة من الصوف ووبر الإبل، إلى أن بنوا العرائش والسقائف من القصب، ثم أجبرتهم النار على بناء بيوت من الطين، بوضع اللبنات بعضها فوق بعض، لتصبح أكواخًا، أو بيوتًا متواضعة. لقد تغيرت الكوفة كثيرًا في هذه السنوات؛ حتى أخذت الأبنية المرتفعة والدور المؤلفة من طبقات عدة مكان كل ذلك الخراب. لقد أصبحت الجدران مجصصة، وتزينت الأبواب بالنقوش والرسوم؛ نقوش فارسية انتقلت عبر الحروب بالسلب والنهب، أو بأيدي صُنّاع ونجارين أعاجم. كل ذلك جعل من الكوفة مدينة عظيمة، مدينة أكثر عمرانًا وجمالًا؛ لكنها فقدت بساطتها ورونقها الهادئ. مع ذلك، كان ميثم يظن أنه ما زال ذلك الفتى الذي جُلب إلى ميدان كناسة، في ذلك الفجر القارس، مقيد اليدين. كان يستطيع أن يبدل حياته، ويعيش حياة رغيدة هانئة؛ لكنه لم يفعل. فالآن يرى حياته تشبه تمامًا هذا السلّم الذي صنعته شجرات النخيل بظلالها. كان يشعر أن شطرًا من حياته فقط له وزن وقيمة. إنها السنوات الأربع وما زاد عليها من الشهور، تلك المدة التي قضاها أمير المؤمنين في الكوفة. كان يشعر أن حياته شبيهة بميزان قد خلت كفّتاه من الجهتين، وهو يقف في الوسط عند مركز الثقل. كانت اللحظات مع علي لا تنسى أبدًا. اغرورقت عيناه بالدموع، ورسم غشاء دمعه هالة على وجه القمر، بينما هو ينظر إليه. في أول مرة، عندما رأى أحدهما الآخر، اهتزّ وجوده دفعةً واحدة. ما زال

يشعر بتلك الرعشة التي هزت كيانه بالقرب من جدار جعدة:

من الجيد أنك رحلت ولم تر هذا اليوم!

اختنق ميثم بعبرته. كثيرًا ما كان يشتكي عليّ من أهل الكوفة. لكن ميثمًا لم يكن يعتقد أن الغدر يصل بهم إلى هذا الحد، فيتركوا ابنه وحيدًا، ويسلموه إلى خنجر عدوه.

جرّ حصانه وخرج من المدينة. خارج الكوفة كانت الأكواخ قد بنيت بين مزارع القصب، حيث يعيش عرب وعجم في تلك الخرابات والأكواخ البسيطة. كانت حاشية الكوفة قذرة وخربة بمقدار ما كانت عليه المدينة نفسها من العظمة والأبهة والجمال؛ فحاشية الكوفة كانت عبارة عن عرائش من القصب، بالإضافة إلى الخيم والأكواخ المنتشرة في كل مكان، والمتداخلة في بعضها بعضًا. لقد انحدروا إلى الكوفة من كل جهة وصوب، خصوصًا العجم الذين قدموا من تيسفون واكباتان، ومن مناطق أخرى بعيدة، من أجل لقمة العيش. لقد سمع أيضًا أن بعض الناس جاؤوا من خلف الأنهار المليئة بالماء، ولا يمكنه تذكر اسمها بدقة. كانت الخيام والعرائش تبدو أكثر خرابًا تحت ضوء القمر. رفع ميثم رأسه نحو السماء. كان حجاب رمادي باهت من السحاب يجر نفسه ليغطي وجه القمر. منذ أن انطلق ميثم وهو يشعر أن القمر يلاحقه. تأوه، ثم همس في نفسه «علي! علي!».

فجأة تذكر ميثم شيئًا، فأخذ برسن حصانه والتفّ عائدًا، وسلك بجانب نهرٍ حُفر مؤخرًا. كانت شجرات النخيل في الجهة الأخرى من النهر تبدو شامخة، وأوراقها الخضراء النضرة

تتمايل مع هبوب النسيم، كأنها تدعوه إليها. عندما أصبح قريبًا منها، ترجّل عن جواده، وربطه بإحدى الشجرات، ثم تقدم بهدوء. ما زال بستان النخيل يعبق بطيب عطر علي. فجأة انهمرت دموعه وراح يبكي بصمت. نظر حوله، قبل أشهر عدة من تلك الضربة التي تلقاها علي على رأسه، جاءا معًا إلى هنا في جوف الليل. تقدم أكثر، وقف عند نخلة عظيمة الجذع، مسح بيده عليها. كان هنا. جلس على ركبتيه، وسوّى الأرض بكف يده. لم يكن للخط أثر؛ لكنه يشعر بمكانه بيده. لم تكن تلك الليلة مقمرة، بخلاف هذه الليلة؛ لكن القمر كان منيرًا إلى الحد الذي استطاع معه أن يرى الخدوش في الأرض، حين تناول أمير المؤمنين عودًا ورسم له خطًا. بداية لم يفهم معنى هذا الفعل. لقد تذكر أن حافة الخط الذي شقّ الأرض، كان لها ظل تحت نور القمر الباهت. قال له علي:

- لا تتعدَّ هذا الخط!

تعجب ميثم حينها. في كل مرة كانا يأتيان إلى بساتين النخيل، سواء وحدهما، أو مع كميل وأصحابه الآخرين، كانا يبقيان معًا حتى النهاية؛ لكن هذه المرة ذهب علي وتركه وحيدًا. ما الذنب الذي فعله يا ترى؟ كان يودّ كما في كل مرة [مشاهدة] علي يمشي في المقدمة وهو يمشي خلفه، ويستمع إلى نجواه وحديثه.

تلك الليلة لا يمكن أن تفارق ذاكرته. بقي فيها وحده، وذهب علي، وابتعد حتى اختفى في العتمة بين شجرات النخيل. في البداية اعتقد أن عليًا ذهب ليتوضأ. لكن كان كلما انتظره

لا يعود. حدث ذلك في الفترة التي شاع فيها أن معاوية قد استخدم أجراء وعملاء لقتل علي. لذلك، قلق ميثم عليه كثيرًا. اتكأ على النخلة التي شاخت بعد أن كانت فتية؛ كان يجلس فترة من الزمن ويقف أخرى؛ لكن لا خبر عن علي. كأن الزمن قد توقف ولم يعد يتحرك. لم يكن يسمع شيئًا سوى نواح مبهم يأتي مع الريح. وقف يصلي، ثم راح يدور حول النخلة وينصت جيدًا علّه يسمع شيئًا، بعد ذلك، تقدم قليلًا نحو الأمام؛ لكنه رجع وعاد إلى مكانه. حينها، غلبه القلق على أمير المؤمنين من أن يصيبه مكروه. فلو أصاب مولاه عليًّا مكروه هذه الليلة، وهما وحدهما، فلن يسامح نفسه أبدًا. لم يكن يستطيع حتى تخيّل الأمر، أو مجرد التفكير به. فالكثيرون يعلمون أن أمير المؤمنين كان يخرج من داره ليلًا؛ إما لقضاء حوائج الناس، وأخذ الطعام إلى الفقراء والمساكين، أو للذهاب إلى مكان لا يعلمه أحد. فلو أدرك جواسيس معاوية ذلك فإنهم... ارتجف بدنه.

لا يزال يذكر جيدًا. في تلك اللحظة، اختفى وجه القمر خلف السحاب، وسمع صياح طير كأنه النواح. تمسك بجذع النخلة بقوة. كان ينتظر في العتمة والخوف يأخذ منه مأخذًا؛ ينتظر عله يسمع صوتًا، أو يرى علامة، أو (يسمع) صياحًا - لا سمح الله- أو أي شيء يبدد قلقه وخوفه. كان يسمع خفقان قلبه فقط. في تلك اللحظات أدرك أن لا شيء أرهب من سكوت منتصف الليل. كلما مرّ الوقت اشتدّ قلقه وكبر. في النهاية لم يعد قادرًا على التحمل والصبر، فوضع قدمه خلف ذلك الخط،

وهو يشعر بالذنب. كان شعورًا سيئًا، لكنه مضى. أراد أن يرجع، غير أنه كان مشدودًا إلى الأمام. مع ذلك لم ير أثرًا لأمير المؤمنين، فزاد قلقه وتضاعف خوفه. كان يتخيل أن خلف كل نخلة يدًا تحمل خنجرًا، لكن كلا. كان السكون فقط، ونشيج صوت ماء الفرات الذي يأتي من البعيد. فصوت تلاطم ماء الفرات لا يُدرك في النهار؛ لكنه في الليل يُسمع بوضوح. كان يقترب من الفرات أكثر فأكثر في تلك البساتين التي لا تنتهي. في ظل ذلك السكون راح يركض بكل اتجاه، وأوراق النخيل تلطم وجهه ورأسه. لكنه لم يتوقف. أراد أن يطلق العنان لصراخه، لكن لا. كانت أنفاسه تخفق في صدره بجنون. في النهاية رأى عليًا في زاوية من أطراف بستان النخيل؛ رآه جثة هامدة مبتلًّا بدموعه، واضعًا رأسه في حفرة، يشكو همه وينوح ويتألم، ويبث أحزانه فيها. لم يصدق ما رآه؛ خليفة المسلمين يشكو همه وحزنه في حفرة من الأرض. كان يئن ويشكو من أهل الكوفة، ويطلب من الله أن يأخذه إليه. أحس ميثم بأن الدماء تجمدت في عروقه، ولم يعد قادرًا على التقدم خطوة واحدة، فأنين علي في تلك الليلة كان صاعقةً نزلت على رأسه. كان علي يقول أشياء تزلزله وتهزه من الأعماق. أحس بالخواء في قدميه، وكأنّهما قد شلّتا، فلم يعد قادرًا على الرجوع. لكنه لم يكن يعلم السبب؛ أهو ما سمعه من علي، أو لعدم إطاعة أمره، بعدم تجاوز الخط الذي رسمه له. أراد أن يرجع، فناداه علي بصوت جعله يرتعد، لكن أمير المؤمنين رفع رأسه ونظر في وجهه، ففهم ميثم من تلك

النظرة أنه كان يجب أن يبقى في مكانه.

- سامحني! لقد كنت قلقًا على حياتك، ولا سيما أن الشائعات...

نهض أمير المؤمنين وتوجه نحوه. أمسك بذراعه، ومضيا إلى الخط الذي رسمه علي. قال له إن لحيته سوف تخضّب من دم رأسه؛ لكن في مكان غير هذ المكان. ثم نظر إليه نظرة مليئة بالحزن، تمامًا كتلك النظرة حين التقت عيونهما لأول مرة...

رفع ميثم رأسه عن التراب. كان يبكي بكاءً شديدًا؛ حتى اختلط التراب بدموع عينيه، والتصق على خديه. «لكن متى ذلك يا مولاي؟».

أحس في تلك اللحظة أن عليًا بقربه، حتى أنه شعر بصوته؛ لكنه رفع رأسه فلم ير سوى وجه القمر مرتفعًا فوق نخلة باسقة. وقف يصلي مع نسيم الهواء العليل، تمامًا خلف ذلك الخط الذي رسمه عليّه. لقد اندثر الخط لكنه بقي منقوشًا في قلبه.

كان الليل ينقضي، وصياح ديك مبهم يأتي من بعيد. لم تمض لحظات حتى وصل صوت الأذان محمولًا على أجنحة الريح. أتمّ ميثم صلاته وأسرع إلى حصانه. يجب أن يصل إلى المكان الموعود قبل طلوع الشمس، لكن حصانه الأبيض حين رأى فرسًا حمراء، حرك رأسه وصهل صهلة، وانطلق مسرعًا خارج بساتين النخيل.

أعلم أن الطريق الطويلة قد أتعبتك أيضًا. تحمل قليلًا، فعندما نصل إلى المدينة سيكون لديك قسط وافٍ من الوقت لتستعيد همتك.

هزّ الحصان عرفه الأشقر الطويل، وراح يضرب الأرض بحوافره، فتبسم ميثم، وقال: «من الجيد أن نفهم لغة بعضنا بعضًا. يمكنك أن تستريح ريثما أذهب لرؤية سيدي ومولاي». ثنى الحصان أذنيه الصغيرتين مثل غمد الخنجر، وصهل مرة ثانية، وراح يعدو خلف الفرس الكميت متوجهًا نحو المدينة.

كان ميثم يتأمل الجبال السوداء؛ كأنها جدران شاهقة تفصل بساتين النخيل عن الأرض القاحلة والبراري الجرداء، وتستقبل المدينة بأحضانها فتعانقها. بُعيد السهوب بقليل، يمتد جُرفٌ صخري عميق وطويل. كان ميثم يعلم أنه يمتد إلى مسجد قبا. كان قسم منه مليئًا بالمهملات والحجارة والأتربة. لقد ذكّره الجُرف بالخندق الذي كان يمتد خلف أسوار مدينتهم. خندق حُفر خلف الأسوار مباشرة. لكن الخندق الذي يقع بالقرب من بساتين نخيلهم كان مليئًا بالماء، بخلاف هذا الجرف. عندما كانوا يذهبون إلى البساتين، كان والده يطلب منه أن لا يقترب من الخندق، لأنه لو وقع فيه فلن يخرج منه حيًا.

توجه ميثم إلى مكان من الجرف، كان قد ملئ بالتراب، حتى يتمكن الفرسان من العبور بسهولة إلى الجهة الأخرى. تبسم ميثم وقال في نفسه: «أثر سلمان».

حمحم الفرس عاليًا، وعبر الخندق. لكن عيني ميثم كانتا متوجهتين إلى جبل أسود نُحت صخره مثل الشرفات. كان الجبل يلمع تحت أشعة الشمس كالمرآة. تقدم قليلًا، حيث المكان الذي صرعَ فيه أميرُ المؤمنين فارسَ العرب وبطلهم. لقد أخبروه

عن علامة الموقع. كان يراه (يتخيله) شابًا شجاعًا يتقدم وبيده ذو الفقار، وفي الجهة الأخرى فارس ضخم الجثة يزأر ويصيح. لقد أخبره علي بكل شيء. هزّ ميثم رأسه، ثم توجه إلى نخلة يلعب تحت ظلها عدد من الأولاد. في تلك الجهة، تقع مدينة كان قد بناها في مخيلته بناء على ذكريات قد سمعها. لقد زارها في موسم الحج مرات ومرات، لكنه بقي يحب ما بناه في مخيلته أكثر. في الناحية الأخرى امرأة كانت مشغولة بحلب ناقتها. كان اللبن يشخب من ضرع الناقة بقوة، وينسكب في إناء خشبي ويتناثر فيه، بينما بدت أطراف الإناء تميل إلى السواد من أثر اللبن الذي كان يبللها.

- من تريد يا عم؟ سألته المرأة وهي مستمرّة في عملها.

لحس ميثم شفتيه الجافتين، وأخرج من صدره نفسًا حارًا، ثم تقدم ولد إلى الأمام.

- لست أعلم. لقد أصبحت عجوزًا، أو لعلي جئت من طريق أخرى. لقد نسيت طريق المسجد.

- أي مسجد؟ هناك مسجد خلف هذا النخيل.

وقفت المرأة وهي تحمل إناء اللبن. تقدمت قليلًا، وقالت: «من المؤكد أنك جئت من بعيد. تقبل الله منك زيارة بيته. من تريد؟».. لم تمنحه المرأة فرصة ليقول شيئًا، بل نادت ابنتها: «عاتكة اجلبي لي كأسًا». ثم طلبت منه أن ينزل ويستريح قليلًا.

- أنا على عجلة من أمري

- قلت من تريد؟

خرجت من الخيمة بنت جعداء، وفي يدها كأس من الفخار قد كسر جانب من حافتها. أخذتها المرأة وغمستها في اللبن الأبيض.

- حسين بن علي.

رفعت المرأة رأسها، وضمت حاجبيها الكثيفين، وهزت برأسها، ثم مدت يدها لتناوله الكأس، وقالت: «أرى الكثيرين يأتون إلى حفيد رسول الله هذه الأيام».

انحنى ميثم وتناول الكأس، وشرب لبنها. كان دافئًا؛ لكنه طيب ومستساغ. ذكرته نظرة المرأة بماجدة.

- جزاكِ الله خيرًا عن عبد سقيته وأطعمته.

هزت المرأة رأسها، وأخذت الكأس من يده، وملأتها مرة ثانية، ثم ناولته إياها، وقالت:

- لا أعتقد أنه في المدينة.

رفع ميثم فمه عن الكأس.

- أو لعله يكون موجودًا؛ لكن في العادة يذهب في مثل هذا الوقت من السنة إلى ينبع.

- ينبع؟!

- نعم، نخيل أبيه.

تجمّد اللبن في حلق ميثم، وتحركت عقدة حنجرته من مكانها. لقد تغير طعم اللبن في حلقه. ناولها الإناء، وقال: «في مكة قالوا إنه في المدينة».

- لقد قالوا الصواب، فداره قرب مسجد النبيّ؛ لكنه في كل عام يذهب مع أهل بيته إلى ينبع لجني محصول التمر، أي إن طريقه من هذه الجهة. أنا أعلم ذلك، وإلا فمن أين لي أن أعلم ماذا يجري في المدينة؟ ابن رسول الله دائم التفضل علينا، وكلما رجع ومرّ من هنا، ينعم علينا، ولا يحرمنا من نصيبنا. لكن تناهى إلى أسماعي بعض الأخبار؛ لعلّه هذه السنة لم يذهب. وإن ذهب فسيعود بسرعة. لا أدري. لعله يوم أمس أو قبله، رأيت جمعًا يمرّون من هنا. لعلّه كان مع أهل بيته. لقد كان الوقت عند السحر، وأنا امرأة شحيحة النظر. أو لعلي أكون مخطئة؛ لأن في هذه الأيام تحدث أشياء، ويتناقلون أشياء، فلا أدري ماذا أقول. لعلّه ليس في داره؛ لأنه فصل قطاف محصول التمر، والجميع يريدون جني تعب سنتهم...

تنحنح ميثم. شعر أنه لم يفهم جيدًا ما قالته المرأة. لم يسمع كلامها جيدًا إلى حد ما. لقد جاء من مكة وحيدًا، وهو يفكر كيف سيلتقي بابن أمير المؤمنين إذا رآه وجهًا لوجه، فالحسين يذكّره بعلي. تأوه ميثم بشدة.

- قلق أنت؟

- لا.

- لست عربيًا؟

- عبد الله.

راحت المرأة تصب اللبن في قربة جلبتها ابنتها من الداخل. بعد ذلك، رفعت رأسها تريد أن تقول شيئًا؛ لكن ميثمًا قاطعها

قائلًا: «جزاكِ الله خيرًا».

- الوقت قريب الظهر. يمكنك أن تستريح قليلًا، وترفع عنك عناء السفر.

رفع ميثم يده، ونادى على الفتاة. ثم انحنى وأخرج من العدل بعضًا من التمر، وضعه في حجر البنت، وقال: «تمر الكوفة طيب مع قلته». ثم تبسم وضرب بزمام حصانه ومضى.

ظلّت عينا المرأة تلاحقان الرجل الغريب، حتى توارى خلف شجرات النخيل العالية الممتلئة بالتمر الأحمر القاني. همس ميثم قائلًا: «إن شاء الله يكون موجودًا». كانت أمنيته الوحيدة أن يلقى الحسين بعد كل ذلك العناء. ثم تبسم وتمتم قائلًا: «سيكون كل ما فيه رضا الله».

كان الحصان يسير بهدوء، ويضرب الأرض بقوائمه، فيكسر صوتُ وقع حوافره سكوت أزقة المدينة. إنها مدينة رسول الله. كانت الكوفة أكثر حركة وضجيجًا. كان ميثم يعلم أنه يلفت نظر الناس هنا؛ خصوصًا مع سحنته التي كانت تدل بوضوح على أنه ليس عربيا. كل شيء في الكوفة مختلف؛ الضجيج، وألوان الناس، وأجناسهم المختلفة، وكذلك هواؤها الحار الرطب. فالكوفة مدينة الأعراق والألوان البشرية المختلفة، حتى لباس الناس؛ فبعضهم يرتدي اللباس الأبيض الطويل، مثل غالبية أهل المدينة، لكن كثيرين فيها يرتدون اللباس الملون القصير. أما في المدينة، فحتى سيماء الناس وملامحهم متشابهة إلى حد ما. في الطريق سأل امرأة سوداء عن دار الحسين بن علي.

كانت الجارية تحمل قربة على كتفها. رفعت الجارية رأسها، فبانت أسنانها البيضاء الناصعة في فمها الغليظ، وظهر بينهما تضاد كبير، وبدت للرائي أنها دائمة التبسم. لم تقل الجارية شيئًا. أشارت فقط بيدها نحو المسجد، ثم انعطفت ودخلت في زقاق آخر. ترجل ميثم عن ظهر جواده، وضع الرسن على كتفه، ومال بطريقه. كان يمشي بهدوء، ويتأمل كل شيء بعينيه الحادتين؛ الرجال الذين كانوا يرصدونه بصمت، والأطفال الذين كانوا أنصاف عراة. كانت رؤوسهم المبللة تدل على أنهم خرجوا من الماء حديثًا. لم ينطق ميثم بسؤال. كان شارد الفكر؛ ماذا يفعل إذا لم يجد الحسين في داره... ثم مسح على رأس حصانه ولاطفه، فصهل الحصان محمحمًا.

كم أنت مضطرب أيها الجواد!

أخذ ميثم بزمام جواده، وجرّه إلى ظل نخلة، رفع السرج من على ظهره، وربطه بجذع الشجرة. كان جلد الحيوان يختلج ويرتجف، لذلك لاطفه ميثم مرة أخرى، فمد الحصان لسانه الطويل، وراح يلعق يد صاحبه، كأن الأمر أعجبه.

- سوف أعود ريثما يجف عرقك.

وضع السرج داخل العدل، وحمله بيده، ثم توجه نحو باب قد فُصل عن الزقاق بستار. وقف ميثم معتدل القامة وراء باب يسده الستار الغليظ، وسأل رجلًا كان يتقدم منه: أهذه دار الحسين بن علي؟

رمقه الرجل بنظراته، وراح يتأمله من رأسه إلى قدميه، ثم هز رأسه بكل غرور.

- السلام على أهل البيت، وأبناء رسول الله!

لم يلق ميثم جوابًا. رفع صوته وسلم مرة أخرى. بعد لحظات سمع صوت وقع أقدام. تقدم شخص خلف الستار ببطء وهدوء. كان ظلّه يُرى من وراء الستار. بدا منحني القامة شيئًا ما.

- السلام عليك يا عبد الله!

- لقد قدمت لزيارة سيدي أبي عبد الله. أهذه داره إن لم أكن مخطئًا؟

انزاح الستار جانبًا، فرأى ميثم أمامه امرأة عجوزًا تطلب إليه الدخول. مكث ميثم قليلًا يفكر؛ لعله أخطأ الدار.

- تفضل يا حبيب الله!

كان العدل يثقل يد ميثم، فألقاه بجانب الجدار، ومشى خطوات عدة داخل الدار.

- لا يوجد أحد. تفضل يا أخي!

- جئت من سفر بعيد للقاء سيدي الحسين.

- جزاك الله خير الجزاء. من أين أتيت؟

- كانت طريقي طويلة. من الكوفة. لكني قدمت الآن من زيارة بيت الله، من مكة.

- أشخاص كثيرون يأتون من الكوفة هذه الأيام.

تأوهت المرأة العجوز بحرارة وتابعت: « وأي كوفة!» ثم مشت

حتى وصلت إلى ظل الجدار وهي تردد: «الكوفة... الكوفة...» بعد ذلك، اقتربت من جلد معلق وقالت: «قلت إنك قدمت من سفر طويل. اجلس لتشرب شيئًا باردًا».

نظر ميثم في الأطراف. لا شيء يدل على وجودهم؛ فالدار خالية، والسكون يعم المكان. لا وجود لصوت أطفال، ولا صوت لأحد آخر في هذا الوقت من النهار. كانت الدار واسعة، والشعور بخلوها وسكونها كان أكبر. ليس هناك سوى بضع دجاجات وديكين أحمرين، كانت تبحث في التراب تحت ظل شجرة النخيل عن بعض الديدان. انتظر ميثم علّه يسمع صوت أحد الأطفال، غير أن المنزل كان خاليًا أكثر مما يظن. خرجت المرأة من إحدى الغرف وبيدها فراء من الجلد، نشرته تحت ظل الجدار، وقالت: «لماذا لا تزال واقفًا؟ ألم تأت إلى دار سيدك ومولاك؟

- لكنه...

- إنه ليس هنا، لكن داره مفتوحة للجميع.

أصبح ميثم حائرًا ومترددًا.

- لكن أنا...

- لقد جئت إلى المكان الصحيح. إنه منزل ولدي الحسين بن علي.

تابعت المرأة حديثها بحزن: «رحم الله عليًّا لقد عاش هنا أيضًا. كما أنه كان منزل رسول الله. كانت أكثر أوقات الرسول هنا. ما زلت أشعر بطيب رائحته إلى الآن».

أحسّ ميثم برجفة في جسده. لكن من تكون هذه المرأة العجوز؟ لقد سمع أن ابنة الرسول قد رحلت عن الدنيا وهي في سن الشباب. ولكن من تكون هذه الأخرى؟ بينما هو شارد التفكير، وإذ بصوت المرأة يسمع من داخل الغرفة. خرجت وهي تحمل إناء. كان يرتجف في يدها.

- لا تتكبدي العناء.

- الضيف حبيب الله يا ولدي!

توجه ميثم إلى ظل الجدار، وجلس من غير أن يخلع حذاءه. لكن المرأة أصرت أن يجلس على الفراء ويستريح.

- فراء مبارك لقد جلس عليه رجال كبار.

مد ميثم يده وتلمّس جانبًا من فراء الجلد، ولم يجلس عليه.

- هنا أكثر راحة

كانت صورة وجهه المتعب ترى في الماء داخل الإناء.

- لكن أين سيدي أبو عبد الله الحسين؟

رفعت المرأة العجوز رأسها، فظهرت على وجهها المتقدم في العمر تجاعيد خطها الزمن. مع ذلك بدا وجهها عطوفًا ومفعمًا بالرحمة.

- أكثر الرجال الذين يأتون للقاء ابن رسول الله هذه الأيام من العرب. أما أنت...

أشرقت عينا ميثم. وضع الإناء جانبًا، وقال: «ميثم بن يحيى. عجمي. لقد اشتاقت روحي لرؤية ابن رسول الله».

رفع ميثم بصره، ونظر إلى أعلى الجدار المقابل. كانت تقف فوقه حمامتان. وكانت الأنثى منهما تطلق العنان لهديلها.

- ذهبوا منذ أيام عدة لجني محصول التمر!

- إلى أين؟

- بعيدًا من المدينة. إنه قريب البحر. أنا خادمة بيت ولدي الحسين.

ما إن أكملت العجوز جملتها حتى صدح صوت امرأة في الدار:

- ها أم سلمة! لقد جئت لآخذ رحى فاطمة.

دخلت امرأة شابة إلى الدار؛ لكنها ما إن رأت رجلًا غريبًا حتى رجعت إلى الرواق.

- إنها في تلك الزاوية، تحت ظل النخلة يا ابنتي!

لم تمض لحظات حتى دخل فتى. ألقى السلام ومضى إلى

ظلّ النخلة. حمل حجر الرحى، وخرج من الدار مسرعًا.

- لم تقل ماذا تريد من ولدي الحسين بن علي؟

كان ميثم مذهولًا ينظر إلى تلك المرأة العجوز. لقد سمع بهذا الاسم كثيرًا؛ لكنه لأول مرة يرى أم سلمة. نهض من مكانه، وألقى عليها التحية، مرة ثانية، بكل احترام، واعتذر إليها لعدم معرفته بها. تبسّمت أم سلمة وقالت: «قلتَ إنّ اسمك هو ميثم؟» كأنها تذكرت شيئًا. همست باسمه، ثم تابعت: «من المؤكد أنك رجل طيب حتى يوصي رسول الله بك ابن عمه علي بن أبي طالب. كنتُ كلما سمعت باسمك تذكرت سلمان. كان رسول الله يجلك، وكنت أحيانًا أسمع منه أشياء، حتى اعتقدت أنك تختلف عن الآخرين كثيرًا».

لم يكن ميثم قد سمع حديث أم سلمة، ولم يكن رسول الله قد رآه. كان ينظر إلى الحمامتين كيف تتنقلان فوق الجدار من طرف إلى طرف بخفة، ثم تعودان، وهما تشجوان.

- وعلي كان يحبك أيضًا. لقد أصبحت عجوزًا ولا أتذكر كل شيء؛ لكني ما زلت أذكر أن سلمان جاء يومًا إلى داري ورسول الله عندي، فذكر رسول الله اسمك على لسانه. وعندما جاء علي وجلس مع رسول الله أوصاه بك. لم أنس ضحكة سلمان ذلك اليوم. غير أن الرسول قال إن اسمك شيء آخر.

نظر ميثم إلى قعر الإناء، وكان فيه بقية من الماء. تناوله وشرب ما بقي فيه. أحس أنه ألذ وأطيب من ذي قبل. ثم نظر

مجددًا إلى أم سلمة. كانت تقول: إنّ الحسين ولدها، وهي تحب أهل بيته أكثر مما تحب أهلها...

إنها الشخص الذي سمع باسمه في الكوفة لمرة واحدة على لسان ابن سيده ومولاه.

وضع ميثم الإناء بجانب القربة، ثم نهض قائلًا:

- أطال الله بعمرك وأدامك يا أمي!

- إذا لم يكن لديك الليلة مكان في المدينة، فإن دار ابن رسول الله مفتوحة للجميع.

- ليتني استطعت رؤيته.

هزت أم سلمة برأسها، ولم تقل شيئًا. نظر ميثم إليها مرة أخرى. كان ظل النخلة ممتدًّا على ذراع يدها المستندة إلى جذع الشجرة، وهي واقفة منحنية الظهر. أحسّ بشعور غريب. كأن المرأة كانت تعلم عنه أشياء كثيرة، أرادت أن تقولها. ارتفع صوت الأذان. أراد ميثم أن يسألها شيئًا؛ لكنه لم ينبس ببنت شفة. ثم توجه مباشرة نحو باب الدار، وقال: «سرج الحصان وزاد سفري خلف هذا الستار. سوف أعود بعد صلاة الظهر لآخذهما».

لم ينتظر ليسمع جواب أم سلمة. وضع قدمه في شمس الزقاق ومضى.

# **15**

- كل يوم يغيرون على السوق بذريعة ما، ويسطون علينا.

- لم يعد الوضع قابلًا للتحمل.

- نحن أردنا هذا البلاء، وها هو قد حل بنا.

- الآن ليس وقت هذا الحديث. يجب أن نفكر في حل ما. ماذا تقول يا أبا صالح؟ أنت كبيرنا ورئيس تجار الكوفة.

كان ميثم يجلس في زاوية الغرفة، وهو مطرق برأسه إلى الأرض، وغارق في تفكيره.

- يجب أن لا يخرج أبو صالح إلى الضوء؛ فجنود ابن زياد يبحثون عنه في كل مكان.

- أجل يجب أن يبقى ميثم متخفيًا حتى نرى ما سيحدث؛ فالأوضاع لن تبقى على هذه الحال.

قام رجل من مكانه، وقد ظهر عليه الاستياء والقلق، واحمرّ صدغاه من شدة الغضب. أبدل مكان جلوسه، ثم قال: «أنا لم أعد قادرًا على التحمل». بعد ذلك أشار إلى حلقه، وتابع: «لقد وصلت أنفاسي إلى هنا أيها الأخوة! ثم إن جنود عبيد الله لا يحتاجون إلى ذريعة. لقد وصلت الأمور مع هذه الأوضاع، إلى حدّ سادت الأحقاد والخلافات القديمة، وكل إنسان لديه عداوة

مع شخص آخر، أصبح يرى أن الوقت قد حان لينتقم منه».

تنحنح ميثم وراح ينظر إلى التجار. كان قد وصل لتوّه إلى الكوفة، وهو لا يزال تعبًا من عناء السفر. مع ذلك، لم يذهب إلى بيته، بل جاء برفقة أحد أصحابه، ونزل في منزله، فتجمع الناس، ولما سمع التجار بأن كبيرهم قد رجع اجتمعوا ليفكروا في حل.

- غدًا صباحًا - بمشيئة الله- سأتكلم في السوق. يجب أن يسمع الجميع.

اضطرب المجلس، حدثت ضجة.

- ما هذا الكلام يا أبا صالح؟! لا أحد يعلم بقدومك إلى الكوفة.

تبسم ميثم، وبدا وجهه على ضوء الشمع كأن له هالة.

- هذا الفعل خطير؛ إنه خطر على الجميع.

- الكوفة بيتي، وهؤلاء جميعًا أخوتي. لن يحدث إلا ما أخبرني به سيدي أمير المؤمنين.

- لكن من الأفضل أن تصبر، حتى يستتب الأمر، فجنود ابن زياد كانوا في أثرك بعدما خرجت من الكوفة.

- أنا أرى من الأفضل أن لا تظهر هذه الفترة. لقد سمعت أن المبغضين والحاقدين قد وَشَووا بك عند ابن زياد، وأوغروا صدره ضدك. فأنت لسان أهل الكوفة وتجارها، ولا تُنسى تلك المرة حين ذهبت إلى قصر الحاكم، وتكلمت بالحق، ودافعت

عن حقوقنا، وألجمت ابن زياد وأجبرته على السكوت والحكم لصالحنا؛ لكن الجميع شاهدوا أمواج الضغينة والحقد في عينيه. هذا الشاب أكثر حقدًا من أبيه، وأكثر اشتهاء للسلطة. ولقد رأينا كيف علق المشانق، وحكم على الناس بالموت من غير جرم اقترفوه.

قطب ميثم جبينه. كان يهز برأسه ويستمع إلى كلام سليمان.

- هناك الكثير من هذا الكلام... ولكن ما الخبر في الحجاز يا ميثم؟ هل رأيت مولانا الحسين أم لا؟

تأوه ميثم بأسف وحرقة. لقد ذهب لرؤية سيده الحسين، وسار من مكة على أمل أن يلقاه في المدينة، ثم عاد مرة أخرى إلى مكة، ومكث فيها مدة، لعل الحسين ينهي عمله. ثم سار مرة أخرى إلى المدينة لرؤيته، لكنهم قالوا له إن الحسين توجه إلى مكة. بعد ذلك تناهت إلى أسماعه أخبار الكوفة ورسائل أهلها إلى الحسين، وسمع خبر رسول الحسين بن علي إلى الكوفة، فأسرع عائدًا إليها؛ لكنه وجد المدينة غارقة بالدماء والفوضى. لقد ظهر المنتقمون والحاقدون القدامى من جديد، وأطلوا برؤوسهم الفاسدة. في وسط كل هذه الفوضى، انبعثت الأحقاد والضغائن الخفية، فأخذت معها كثيرًا من الناس إلى حفر الموت، ووقع كثيرون في قبضة السجان، واختفوا في عتمة السجون، وعُلّق بعضهم على المشانق في الأزقة والطرقات... عندما دخل ميثم الكوفة، وجد تلك المدينة الغافلة مليئة بالجراحات؛ فرسول الحسين كان قد قتل، بينما العدد الأكبر

من الرجال، خصوصًا الكبار والأشراف، أمثال المختار الثقفي، قد سيقوا إلى السجن، ولم يُعلم ما إذا كانوا أحياء أو أمواتًا.

- في هكذا أحوال، لا أعتقد أن المقام مقام سكوت. إن مصير كل إنسان لن يكون إلا ما قدّر له الله. مثلما قلت لكم. أخبروا جميع التجار أن يحضروا غدًا، فإن في صدري أسرارًا جمة، وعلى الجميع أن يسمعوها. يجب أن يسمع الجميع ما قاله سيدي أمير المؤمنين عن هذا الحاكم الطاغية. يجب أن أذكّر مرة أخرى أولئك الذين نسوا ما قال أمير المؤمنين منذ سنوات خلت.

ثم زفر زفرة حزينة أخرجت حرقة صدره مع أنفاسه، وقال: «آه آه... كم هي مؤلمة هذه السنوات القليلة، وكم هو موجع هذا التبدل الكبير». ثم نهض وتابع كلامه: «لقد صدئت مدينة الكوفة، ويجب على أحدهم أن يزيل صدأها».

كان الجميع يعلمون أن ميثمًا قليل الكلام، لكنه إذا تكلم فإن حديثه يهز الجميع ويزلزل أبدانهم؛ لذلك اختاروه كبيرًا عليهم، ودعوه بعريفهم ليدافع عن حقوقهم أمام الحكام والأمراء. لكن هذه المرة أراد ميثم أن يقول شيئًا يجعل الجميع في حال من القلق والاضطراب.

- لقد تغير الزمن يا أبا صالح! ولا آذان صاغية، هذا السيف هو الذي يتكلم.

- لسان الحق أمضى من السيف يا سليمان! السكوت من ذهب؛ لكن حين يجب الكلام، فعندها يصبح واجبًا ليمنح الحياة قيمة ومعنى. إن صدري مثقل بالأسرار، وحتى الآن لم

أطلع أحدًا عليها. ليتني كنت أملك جرأة عليّ، فألجأ ليلًا إلى البراري والصحاري والجبال، وبساتين النخيل، وأحفر هناك حفرة، أشكو فيها بثي وحزن قلبي.

كان ميثم يتكلم بشجاعة وصلابة، وينظر إلى الآخرين من وراء غشاء دموعه، وقد أطرقوا إلى الأرض، وأجهشوا بالبكاء. فاسم علي قلب كيانه مرة أخرى، وجعله مضطربًا، ولم يكن قادرًا على إخفاء بكائه.

عندما أتم كلامه، قال بهدوء: «غدًا سأتكلم بحديث سيبقى في الذاكرة، ولن ينسى أبدًا». ثم جلس مكانه.

كان الوقت منتصف الليل، فأخذ الناس ينسلّون من الدار ويتفرقون في العتمة واحدًا واحدًا، ويختفون في زوايا الأزقة والطرقات. كانوا جميعًا قلقين من الغد. خرجوا وأراد ميثم أن يخرج هو الآخر؛ لكن صاحبه قال له: «من الأفضل أن تمضي هذه الليلة هنا يا صديقي! فأنا مع هذه الجماعة لا أثق حتى بعينيَّ. ما يدريك لعل أحدهم يذهب إلى دار الإمارة من أجل كيس من الدراهم».

- هذا أفضل دليل على وجوب ذهابي من هنا.

- إلى أين؟ أنا أملك دارًا أخرى، فإن أردت...

- أنا أيضًا أملك دارًا أخرى، لكن في حي بني أسد.

- تقصد دار ماجدة العجوز؟ المرأة وحيدة ولم تعد تبصر بعينيها. إنها مجرد حفنة من العظام والجلد.

- ألا تعتقد أنه المكان الوحيد الذي يمكن أن أكون فيه بأمان؟

تبسم الرجل من فطنة ميثم، ثم ودّعه إلى باب الدار.

- لا تنس عند الفجر خذ وسائلي إلى داري، وأخبر أهل بيتي بقدومي. ثم أشار إلى العِدل وقال له: «لقد جلبت بعض الهدايا لأبنائي، يجب أن توصلها إليهم. حقًا! قل لولدي صالح أن يأتي إلى الدكان قبل شروق الشمس.

وقف الرجلان في العتمة.

- لكن دار ماجدة قريبة من دار ابن حريث رئيس شرطة الكوفة.

- هذا الأمر لا يجعل أحدًا يشك بي، ثم إن الله هو الحامي والحافظ لعباده.

بعدما أنهى كلامه، ضمّه صاحبه إلى صدره وعانقه، وسار ميثم في العتمة يخط الأرض بخطوات هادئة. هل يجب أن يوقظ ماجدة من نومها، أو عليه أن يذهب إلى مكان آخر؟ إن قلبه لا يطاوعه أن يُقلق امرأة عجوزًا في منتصف الليل، مع علمه أن ماجدة تشعر برائحته، وهي الآن مستيقظة. بقي حائرًا في أمره، ماذا يفعل؟ وإلى أين يذهب؟ وقف في منتصف الطريق. عاد وسلك الطريق المؤدية إلى حي بني أسد. دار حول الحي وتوجه إلى ميدان الكناسة. كان يعلم أن المكان خطر، ويحتمل أن يكون مليئًا بالجنود. وقف في زاوية مظلمة. كانت أصوات بعض الجنود تأتي من جهة دار ابن حريث؛ حيث كان عدد منهم يقفون أمام منزله. كان ظل النخلة، تحت نور القمر، ممتدًا إلى

الجهة الأخرى من الميدان. قال في نفسه: «عما قريب سوف أكون قرينك». ثم تلمّس الجدار بيده، وتابع طريقه.

في الجانب الآخر من المستنقع حُفر مؤخرًا نهر جديد. إلا أن المستنقع لم يعد له من أثر. كان الماء العذب يلمع في النهر، تحت ضوء القمر، مثل البلور. تقدم ميثم أكثر حتى وصل إلى منعطف من النهر. كان المنعطف يقع خلف أعواد القصب الممتشقة. هناك، خلع قميصه، ونزل إلى الماء البارد. نوى الاغتسال ثم غمر رأسه في الماء. عندما سكن بدنه، انسلّ من الماء بهدوء، وتوجّه إلى الخارج. لكن ما إن وضع قدمه على الساحل، حتى قفزت ضفادع عدة في الماء مصدرة صوتًا يشبه البقبقة.

- أنا لا أريد منكِ شيئًا.

خيم السكوت مرة أخرى، وساد الصمت. كان الهواء البارد والمنعش يزيل عن بدنه تعب الطريق. تناول قميصه البسيط ووضعه على جسده. لقد عاهد ميثم نفسه، بعد شهادة علي، أن يكون مثله بسيط الملبس، فلا يضع على جسده غير اللباس الخشن الزهيد الثمن... ثم راح يذكر عليًا على لسانه...

كان الليل ساكنًا وهادئًا. مرة أخرى، بعد سنوات، تتكرر تلك الليالي الجميلة التي تأسر القلوب؛ لكن هذه المرة كان ميثم وحيدًا، كانت أشجار النخيل الباسقة تبدو من بعيد كالجدار. إنها أشجار النخيل نفسها التي كان أمير المؤمنين وأصحابه يلجؤون إليها. ذكريات جعلت الدموع تملأ عينيه. كان النسيم يهبّ فيرتعش جسده، بينما هو شارد يفكر... سيدي ومولاي! إن

صدري قد مُلئ حزنًا، وفاض أسىً، إلى متى الصبر؟ لم أعد أملك طاقة على الانتظار. فمتى يحين الوقت؟

ثم مضى نحو أشجار النخيل؛ إلى المكان نفسه الذي رسم فيه علي خطًا، وطلب إليه أن لا يعبره، وأن لا يخطو خلفه خطوة واحدة، ولكنه تجاوزه ذلك اليوم. أما هذه المرة فقد وقف ميثم خلف الخط، وقف للصلاة.

# **16**

- أيها الحمقى! ما بكم جمدتم كالحجارة، بينما هذا العلج الخبيث، في السوق، يشعل النار بسلالة بني أمية، ويبثّ سمّ الحقد بكلامه؟ أسرعوا حتى لا يفرّ مرة أخرى.

كان الجنود يركضون والسيوف بأيديهم تلتوي وتستقيم، ورؤوس الرماح الحادة المتوقدة تعلو ثم تنخفض. كانت عيونهم محجوبة خلف أقنعة من الجلد. خرجوا من الباب الكبير مسرعين، وتوجهوا نحو [طريق] السوق. مرّوا من أمام باب مسجد الكوفة المعروف بباب الثعبان، وذهبوا مباشرة إلى السوق.

التفت عمرو إلى ابن المغيرة وقال: «لست أدري متى رجع هذا الجنّي إلى الكوفة؛ فجميع الطرقات كانت تحت أعيننا».

- لا بد أنه دخل المدينة ليلًا على غير هيئته. لئن وصل كلامه إلى أسماع ابن زياد...

قطع عمرو كلامه قائلًا: «لقد وصل الأمر بهؤلاء العجم إلى أن يتجرؤوا ويضرموا نار الفوضى في المدينة.

- حتمًا سيفعلون ذلك. فعندما يصاحب خليفة المسلمين رجلًا من غير العرب، فإن هؤلاء العجم سوف يصبحون متغطرسين ووقحين أيضًا.

- لقد مات علي وتغير الزمن.

في أول السوق جلس رجل مسنّ أمام محل بيع الأحذية الذي يملكه. ما إن رأى الجنود قادمين، حتى هرع إلى الداخل، واختبأ في زاوية مظلمة من دكانه. كان الجنود يعبرون السوق بسرعة، وجيادهم تصهل صهيلًا عاليًا، وترفس بحوافرها الحشود الذين سدوا طريق السوق. لقد تجمع عدد كبير من الناس، حتى امتد جمعهم إلى ما بعد سوق السيوف والدروع. كان ميثم يتكلم بالجمع، ولم يكن صوته يسمع بوضوح؛ لكن الجميع كانوا يريدون رؤيته. لقد فرّ من الكوفة لشهور عدة، وها هو الآن قد عاد يدعو التجار والناس إلى التمرد. لم يكن جسمه النحيل يُرى؛ لكن صوته كان عاليًا ومدويًا.

- أيها الناس تعالوا حتى أكلمكم بكلام لم تسمعوه من قبل؛ لأقول لكم ما الذي كان يحويه صدر مولاي علي حول هذه السلالة، وأي غمّ كان يعذب قلبه، وأي قيح كان يملأ صدره. لقد دعاكم أمير المؤمنين إلى قتال هذا الخبيث الطاغية، وحذركم من يوم سيأتي تؤخذون فيه ليلًا من أحضان نسائكم، يوم تضرب فيه أعناقكم

بشفرات السيوف الحادة. فلو أنكم لم تسدّوا آذانكم في ذلك اليوم، ولم تركنوا إلى زوايا بيوتكم المظلمة، لما وصلتم إلى ما وصلتم إليه، وما كنتم اليوم بائسين تعساء، ينظر إليكم أعداؤكم بعيون ترى أن نسل أهل الكوفة يجب أن يمحى من الوجود.

كان صوت ميثم يرتفع كل لحظة ويعلو أكثر فأكثر.

- ما زلت أذكر جيدًا كلام أمير المؤمنين، حين كان يجلس على هذا الكرسي، وفي هذا السوق. أيها التجار إن كنت كاذبًا فارجموني بالحجارة. ألم يكن صهر النبيّ يدعونا إلى تعاليم الله وأحكامه؟ ألم يقل إنّنا جميعنا عباد الله، ولا فرق بين عربي وعجمي، ولا بين أبيض وأسود؟ ألم يكن يعطي الجميع من بيت المال بالعدل والمساواة، وكان يشير إلى خادمه ويقول: لا فرق بيني وبينه؟ أيها الأعاجم! يا أصحاب البشرة السوداء والحمراء! يا من يدعونكم بالحُمُر المُسمّنة التي لا فائدة ترجى منها سوى حمل الأثقال. الآن بعد أن فارقنا علي أصبحتم تدركون كلامه أفضل. أيها العبيد السود والأجراء المعذبون! ألم يحرركم علي وينظر إليكم بعين الإنسان؟ لكن عندما مرّغ في التراب أنوف أولئك الساعين إلى الراحة والدّعة، أصحاب البطون الكبيرة، وذكّرهم بجهالتهم، عندها لم يستطيعوا التحمل. في النهاية وضعوا أيديهم بيد عدوه، وخلّوه وحيدًا، وأدموا قلبه حتى صار يتمنى الموت. أقسم بالله أني سمعت عليًا في جوف الليل يطلب من الله أن يأخذه إلى جواره، وأن يولّي عليكم حاكمًا على شاكلتكم كما تستحقون. أقسم بالله إن في انتظاركم أيامًا أسوأ

من هذه. لماذا وقفتم ساكتين، وأصبحتم كالحجارة الصماء؟ كل من يأتي يتفّ في وجوهكم ويزدريكم أسوأ ازدراء.

لم ينته كلام ميثم بعد. كان الجنود يصيحون ويحاولون تفريق الجموع بالسياط؛ لكن السوق ظلّ مزدحمًا بالناس، فلم يكونوا قادرين على التقدم بسهولة.

- ماذا حل بكم بعد عشرين عامًا، حتى نسيتم سيرة أقرب الناس إلى رسول الله؟ ماذا دهاكم يا أهل الكوفة؟ أيها المسلمون لماذا أنتم ساكتون؟ ألا تذكرون عندما كنا جميعًا نصطف خلفه للصلاة في مسجد الكوفة؟ أما الآن فصار للعرب مسجدهم الخاص، بينما العجم اتخذوا من الخرابة مسجدًا. أوليس جميعنا نسجد لله؟ لماذا يجب أن يكون مسجد العرب ممنوعًا على العجم؟ لماذا يجب أن نسير على أقدامنا، بينما هم محمولون على الدواب والمراكب؟ لماذا عطّلت أحكام الله وكتابه، وارتفعت حجارة الجاهلية مرة أخرى على المنابر؟ ما أتعسنا من قوم! لقد اشترينا جهنم بدنيا غيرنا. جميعكم تذكرون حديث ابن أبي سفيان، حين صعد منبر مسجد الكوفة يومًا. في ذلك اليوم نقض عهده وميثاقه، وقال: «والله إني ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون» لكن واحسرتاه!... إن الحسين ابن الخليفة الشهيد في طريقه الآن إلى الكوفة، وأنتم ترون بأعينكم كيف يضعون السيوف على أوردة أعناقكم، ويجبرون نساءكم على أعمال السخرة،

ويضيقون عليكم في كل الأحوال، ويجرّون كبار أهل الكوفة وشيوخها إلى السجون، مقيدين بالسلاسل والأصفاد... أجل، لأن دنيا هؤلاء الذين لا دين لهم أصبحت في خطر.

كان ضجيج الناس وصياحهم يعلو، وكلام ميثم الحادّ يجذبهم، حتى أن أحدًا لم يكن يلتفت إلى الجنود.

- ها قد ابتلينا بكل سهولة بما كان يحذر منه علي. لقد سقطنا في البئر بأيدينا؛ بطلبنا الراحة والعافية. وهذا ولد أبي سفيان، وابن زياد، سوف يرويا سيفَيهما من دماء أكابر أهل الكوفة وشيوخها، وليس من دماء السود، ولن يعتقلا فقط كل محب لأمير المؤمنين، بل كل من يعتقد أنه يملك فكرًا مخالفًا له. إن هذا الأموي اللئيم قد أحل دماءكم، وعدّكم من غير المسلمين، فأين هذا الحكم في كتاب الله؟ لماذا أنتم ساكتون؟

كانت كلمات ميثم تخرج كالسهام من قوس صدره.

- أقسم بالله إن هذه الكلمات هي آخر حديث إليكم، وعن قريب سوف تروني معلقًا على شاهقة الموت، وقد ألجموا فمي حتى لا أكلمكم. أيها التجار! يا بائعي التمور والأسماك! يا من تخالطون المساكين وترون بؤس الفقراء، إنكم ترون الظلم الذي يقع على نساء أهل الكوفة وأبنائها. أي حياة هذه؟ لقد عطلوا أحكام الله، فلا دنياكم هادئة ولا عيشكم مطمئن. فهل بقي بعد ذلك شيء أسوغ للإنسان من الموت، فيطلبه من الله؟

- ابتعدوا! ارحلوا من أمام دكان هذا الخبيث المجنون.

أخذ الجنود يتقدمون بصعوبة، ويضربون الناس بالسياط،

ويهددونهم بالسيوف والرماح حتى يتفرقوا. وكانت الخيول تصهل، وتدوس على أقدامهم، فتدمي أرجلهم، وتبعدهم من أمامها. صاح ابن حريث وطلب من الجنود أن يريقوا دم كل من يعترض طريقهم. كان حصانه يطأ الناس بقوائمه، ويتقدم إلى الأمام ببطء.

- أيها التمار الخبيث! ما إن وصلت حتى اعتليت المنبر!

دخل بضعة جنود إلى دكان ميثم، وراحوا يبعثرون سلال التمر، ويفرغونها على الأرض. ثم أمسكوا به وسحبوه من على الكرسي إلى الأسفل.

- ليس عندي كلام أقوله سوى الحق.

- إنه المتمرد الذي يجمع حوله المشردين والبطالين.

- ميثم! إنه كبير تجار الكوفة.

- أنت الآخر! اصمت أيها المتمرد.

خاف الرجل وتغير لونه، ثم تراجع إلى الخلف، واختفى بين الجموع.

- قيدوا يدي أحمر الوجه هذا، ليتضح من الذي يحافظ على أموال الناس وأرواحهم.

- قيدوا يديّ؛ لكنكم لن تستطيعوا تقييد فمي.

- سوف أحطّم أسنانك أيها المزاحم الثرثار!

أحاط الجنود بميثم من كل جانب، ولم يسمحوا لأحد بالاقتراب منه. بعد ذلك جروه وسط زحام الناس وصياحهم.

- وأنتم أيضًا، تؤجرون آذانكم لكل ناعق. ابتعدوا من هنا،

وإلا سوف أقول لابن زياد إنكم...

حين رأى ابن حريث أن الضجيج لا يهدأ، أخذ برسن حصانه واستدار نحو الناس، وقال: «ابن الأعجمي هذا قد فرّ من العدالة، والآن يجب أن يذعن لأمر الأمير». غير أن الناس لحقوا بهم إلى دار الإمارة. فلما رأى ابن حريث أمرهم، سلّ سيفه وطلب من جنوده أن يسدوا الطريق عليهم بالحراب.

كان باب القصر الكبير مفتوحًا. دخل الجنود ومعهم ميثم. لكن ما إن عبر ميثم الدهليز حتى ضربه جندي بمقبض سيفه في خاصرته، وقال له: «الآن لا يمكنك أن تصدح بالخطابة هنا». أحس ميثم بألم شديد في خاصرته، لكنه لم يلتفت ليتعرف إلى الجندي. وقف هنيهة، فدفعه الجندي إلى الأمام، حتى صاروا داخل باحة دار الإمارة تحت أشعة الشمس المحرقة، ثم أكملوا وعبروا بجانب عدد من الخيول، كانت مربوطة بنخلة في ظل جدار الإصطبل، بينما تقف ناقة حمراء تجتر تحت أشعة الشمس، تمد عنقها غير آبهة بالشمس الحارقة. كانت تنظر إليهم بعينيها الواسعتين وهم يصعدون درج دار الإمارة. هدرت الناقة فجأة، فالتفت ميثم إلى الخلف، ووقع نظره على بضعة عمال كانوا يطلون الجدار بالجص الأبيض. عرف منهم مسلمًا الجصاص. كان مسلم واقفًا، فانحنى وتناول قبضة من الجص، وما إن توجهوا بميثم نحو الطمار؛ أي قبة القصر، حتى مسح الرجل الجص، وملأ به بقعة سوداء في الجدار.

كان ابن زياد غارقًا في سريره، ملتحفًا برداء حريري أخضر،

متدليًا من على كتفيه، وهو ينظر إلى خاتمه الذي نقش عليه رسم أسد بين شجرتين. لم يرفع ابن زياد رأسه، علمًا بأنه رآهم من النافذة وهم يجلبون ميثمًا. دخل ابن حريث على الأمير وهو ممسك به، قائلا: «هذا هو الكذاب صاحب الكذابين». لم ينطق ميثم بكلمة. انسلّ ابن زياد من على تخته إلى الأرض. اقترب من ميثم. عبس، وقال: «أنا أعرف هذا الخبيث. أليس هذا هو صاحب اللسان الطويل الذي جاء إلينا مع تجار الكوفة ذات مرة، وكلمنا بصلافة وقلة أدب؟».

هز ابن حريث رأسه، وأراد أن يتكلم؛ لكن ابن زياد رفع يده، وقال: «ليس عربيًا أيضًا»، ثم اقترب من ميثم أكثر وهو يقول: «لقد أصبح لسانك طويلًا إلى حدّ أنك صرت أينما جلست تقول ما تشاء بجسارة، تعتقد أنْ ليس لنا عيون. أنا أيضًا، كما يقول الله في كتابه، أعلم ماذا يدور في رؤوسكم من أفكار، وأعلم ماذا تهمسون لنسائكم. ثم ضحك وأكمل حديثه: «أنتم العلوج الحمقى تعتقدون أني لا أفهم. أنا أذكر صياحك ودفاعك عن تجار الفاكهة... ألم تسمع بأن الجلد سيقع في يد الدباغ يومًا؟ اعتقد أن هذا المثل مثلكم. في الأصل لماذا يكون أعجمي هو الناطق باسم التجار؟».

- سيدي! هذا الرجل رئيس التجار، وعريف سوق الكوفة منذ زمن...

- هذا البُحتر أحمر الوجه! أليس هناك من رجل آخر حتى يأتي ابن الأعاجم ليتكلّم؟

- تبسّم ميثم ولم يقل كلمة واحدة.

- اضحك، فيوم بكائك آت.

- ليس في كلامك ما يضحك. أنا أضحك على ما وصلت إليه.

- عجبًا! لقد فتح ببغاء علي فمه.

تقدم ابن زياد وراح يضرب وجه ميثم بخيزرانة كانت في يده، وهو يقول: «من علمك هذه الترهات حتى تنادي بها في الأزقة والأسواق؟».

لم ينبس ميثم ببنت شفة. تقدم ابن زياد أكثر. وضع الخيزرانة تحت ذقن ميثم ورفعه عاليًا، وقال: «هل تعلم أي خصلة يمتاز بها الببغاء؟». ثم التفت إلى الناس الواقفين بصمت قائلًا: «الببغاء يصيح ويردد ما يسمع فقط، سواء كان فحشًا أو موعظة». ثم عاد والتفت إلى ميثم بغضب. نهره وقال: «ماذا علّمك علي حتى أصبحت حديث الناس إلى هذا الحد؟». عندما رأى أن ميثمًا لا يتكلم، تقدم إليه وأمسكه بذقنه بكل قوة، وهو يقول: «أما أنا فسوف أفتح منقارك هذا، وأخرج ما زرعه علي في عقلك. لعلك الآن لن تفتح فاهك، لكن عندما يحين الوقت ستنطق بكل كلمة تعلمتها». بعد ذلك، عاد إلى سريره وهو يمشي مترنحًا. وضع رجله على حافته السفلى، وراح ينظر إلى مقدّم حذائه الأحمر، ويقول بحقد: «الآن يجب أن تفتح منقارك وتنعق. لماذا أطبقت فمك أيها الجبان؟»، ثم تابع لكن باستهزاء: «أيها الببغاء الفصيح! اعلم أني قد استخرجتُ

الكلام من حناجر أصلب وأشدّ، فكيف بمنقارك الذي يخرج منه كلام فارغ ومنمق؛ كلام جزاؤه الموت الأحمر؟ لولا أنك هربت تلك الليلة، لكنت مزقت حنجرتك بيدي هذه».

- ما كنت لتستطيع أبدًا، فالوقت لم يكن قد حان.

- أنا الذي أحدّد وقت موتك، ولستَ أنت.

تبسم ميثم مرة أخرى، وأراد أن يجيبه؛ لكن ابن زياد عاد إليه بغتة، وكاد رداؤه الأخضر أن يقع من على كتفيه إلى الأرض، لكنه عدله، وقال: «إذًا لقد علمك علي أشياء أخرى. ألا تعلم أني قمتُ بأفعال لا تعدّ ولا تحصى، ولا تخطر على بال أحد؟ لقد ظن ابن عروة أن قبيلته لن تتخلى عنه، لكني قتلته ورميت برأسه إليهم. ومن المؤكد أنك سمعت كيف اختبأ رجال الكوفة ولاذوا في أحضان نسائهم من شدة الخوف. ثم جئت برسول الحسين ورميته من أعلى هذا القصر إلى الأرض، مع وجود آلاف الأنصار، ولم يكن أحد ليتصور ذلك. واعتقلت ذلك المتمرد الثقفي، وأودعته السجن أيضًا، وعن قريب سوف أعلقه على حبل المشنقة. أما ذلك المتمرد الكبير المتوجه إلى الكوفة الآن...».

تبسم ميثم مرة أخرى.

- إذا كان في كلامي ما يثير الضحك، فقل لي حتى يضحك الآخرون أيضًا.

ظل ميثم ساكتًا ولم يتكلم. لم يكن ابن زياد قادرًا على تحمّل فعل ميثم، فقال له وهو يضحك: «هل تعلم لماذا أمرت الجميع

بالحضور إلى القصر؟ لأن أمامنا احتفالًا كبيرًا». ثم أخذ نفسًا عميقًا، وتوكأ على وسادة مطرزة بخيوط من الذهب، وراح يرمق ميثمًا بطرفه، وهو يفكر: «يجب أن ينفذ خطته بإهانة الرجل الذي يحبه ميثم حتى يجبره على الكلام».

- سمعت أن علاقة خفية كانت تربطك بالكاذب الكبير.

- إن فمي لم ينطق بالكذب أبدًا، مثلما كان الشهيد العظيم والصادق الكبير.

ضحك ابن زياد حتى علت قهقهته. لقد وفّق أخيرًا.

- في النهاية فتحت منقارك، وتحدثت عن ذلك الكذاب الذي شقّ عصا المسلمين، وأوقع الخلاف بينهم. حسنًا، حدثني عن علي. سمعت أنك تفعل أفعال المجانين، وتقول عن الناس أشياء عجيبة، لا يصدّقها حتى العجائز من النساء.

- سيدي الأمير! بالإضافة إلى ذلك، فإنه كان يزاحم الناس ويضايقهم. فأنا مثلًا. كان يفرش الأرض أمام داري على الدوام، ويلازم المكان، إلى تلك الليلة التي فرّ فيها.

- وأي سوء أكثر من أن تكون رئيس شرطة الكوفة، وتدع هذا التمّار يفعل ما يشاء من الخطايا؟ لقد أفسد علينا السوق، وجعله هرجًا ومرجًا، فليس قليلًا أن..

- سيدي! أعني أن هناك شجرة نخيل قد تحولت إلى بلاء، وسلبت راحتنا يا أمير! إذ كان يأتي إليها في جوف الليل، ويقف تحتها للصلاة.

- أوَيعرف الصلاة هذا المهذار، عابد النار؟!

- إنه كاذب كبير.

- أنا لا أقول إلا الحق.

- لأجل هذا تحسب أن الكوفة جنة عدن بالنسبة إليك، فتفعل كل ما تريد.

- أي كوفة! لم يبق هناك من كوفة، ولا أرى أثرًا لأهلها.

- إذًا أين كنت تنعق؟

- الكوفة غدت مقبرة غارقة في صمت الموت.

- بناءً عليه، فإن هذه المقبرة ليست بحاجة إلى ببغاء. أليس كذلك؟

هز ميثم رأسه بتأسف، وقال بهدوء: «كانت هذه البلاد في يوم من الأيام روضة غناء، وكان الجميع يعيش في ظل نعيمها حياة هانئة. ولكن... «.

- ألا تريد أن تقول إن ذلك الزمان كان زمن خلافة علي؟

- بل كان الأمر كذلك. لقد بنى علي جنة، وكان يعمل فيها بأحكام الله؛ الجنة التي لا فرق فيها بين أسود وأبيض وأحمر. كان الجميع متساوين، والحياة فيها...

- هذا يكفي أيها العجمي! لا تكن بليغًا حلو اللسان إلى هذا الحد.

أرخى ابن زياد رداءه حتى فاض على طرف سريره، فكان ثوبه الحريري النفيس يتحرك تحت الرداء على أثر هبوب النسيم. ثم خفض صوته، وقال: «انظر يا هذا! أقول لك إني

سوف أعفو عنك الآن؛ ولكن بشرط...».

كان ميثم يقف متكئًا على رجله اليسرى، فحاول أن يعدِل وقفته. كان مجبرًا على جعل أكثر ثقله على النصف الآخر من بدنه، بسبب الألم الذي كان يشعر به من ضربة ذلك الجندي.

- إذا شتمت عليًّا الآن، هنا أمام جميع كبار أهل الكوفة، وأقررت أن كل ما قاله لك كان كذبًا، فإني أعفو عنك، وأخلي سبيلك من غير قيد أو شرط.

- أنت؟! أنا أعلم أنك عن قريب سوف تأمر بقطع يديّ ورجليّ، وسوف تقطع لساني، وتلجم فمي.

- أنا أفعل ذلك؟ لا أصدق أني قاسي القلب إلى هذا الحد.

- لقد بشرني بذلك سيدي ومولاي علي.

- لا أعلم ماذا أعطاك علي حتى تحب الموت إلى هذا الحد.

ابتعد ابن زياد عن النافذة، وقال: «إذًا، لقد أخبرك ذلك الكاذب كيف ستموت. لكن هل تقبل أن ما قاله علي كان كذبًا، إن أخليتُ سبيلك الآن؟». ثم مكث قليلًا، وأشار إلى الباب، قائلًا: «يمكنك الذهاب». لم يحرك ميثم ساكنًا. استدار ابن زياد نحو الجدار، ونظر إلى خنجر كان معلقًا عليه، وقال: «العفو عنك مع كل ما قلته يعدّ حماقة. لكن والله لأكذبنك ولأكذبنّ مولاك؛ سوف أقتلك قتلة، وأعذبك عذابًا أفضح فيه مولاك الكاذب».

- أما علمت أن مولاي عليًّا قد تربى في حجر رسول الله، ولا يقول الكذب قط، ولا ينطق بالعبث أبدًا، وأني لم أر منه إلا الحق؟ ثم التفت ميثم إلى الرجال الواقفين وقال: «هؤلاء

يشهدون أي رجل كان علي».

- هؤلاء جميعهم يقولون إنّه كان كاذبًا.

الجميع يعرفون أن كل ما قاله علي كان حقًا.

- لم أكن أعلم أن ببغاء علي يستطيع أن يتكلم بهذه الحلاوة والفصاحة. لكني سوف أدمر روضته.

- الببغاء يحيا عندما تكون هناك روضة، أما عندما لا تكون، فمن الأفضل أن لا يكون ببغاء أيضًا.

عندما رأى ابن زياد جواب ميثم الحاضر، استشاط غضبًا. اقترب منه وأمسك بلحيته البيضاء وشدّه منها، ثم نظر في عينيه، وقال: «علي قال هذا أيضًا...». أراد ابن زياد أن يأمر لتوه بقطع رأس ميثم وفي المكان نفسه، وإذا بصوت الجرس الخاص يرتفع.

- رسول من الشام يا أمير!

تقدم الرجل الملثم من ابن زياد. التفت عبيد الله إلى ابن حريث، وقال:» ارمِ هذا العجمي في السجن بجانب ذلك الخبيث الثقفي. سوف أقدم على فعل أجعل الجميع يشهدون أن أحاديث هذا العلج كاذبة».

كان الرسول يرتدي لباسًا أحمر. التفت إلى ثوب ميثم الخشن والملطخ بالدم. لقد جفت قطرات الدماء على وجهه ولباسه. تقدم ابن حريث، وأمسك ميثمًا، ثم جره إلى الخارج، وأبعده عن نظرات ذلك الرسول.

# **17**

بعد ساعات قليلة يلجمون فمي. أما أنت فسوف تنجو من هذه الطامورة، وتخرج منها، وسوف تقتص من قاتل ابن رسول الله.

نهض المختار من مكانه دفعة واحدة. كان الألم يشتد عليه، بعد أن أصيب بجرح في صدغه.

- وهل قُتل الحسين؟!

- لا، ولكن عن قريب سوف تصطبغ السماء بلون الدماء.

نظر المختار إلى ميثم بتعجب، وقد تجهّم وجهه، وانشقّ الجرح والدم الغليظ المتجمّد فوق جرحه المفتوح عند طرف عينه، فسال الدم والقيح على خدّه. لم يكن قادرًا على الحركة. وضع رأسه على الجدار، وراح يضرب الجدار بقبضتَيْ يديه.

علت أصوات السلاسل في السجن. عاد ميثم ونظر إلى المختار بلطف، وقال: «حان موعد الفراق يا أخا العرب! اعتنِ بإخوانك الأعاجم، ففي لحظات الشدة سيكونون أنصار الحق».

- جزاك الله خير الجزاء يا أبا صالح! ليتني أقدر على الكلام.

تعانق الرجلان عناق وداع، ثم ربّت ميثم على كتف المختار العريضة مرات عدة، وتوجّه نحو الحارس الذي كان يستعجله.

كان الدهليز شبه مظلم، وعلى جانبيه توزعت غرف مليئة بالسجناء الذين كانوا يُعتقلون لأدنى عذر. كان بعضهم مطروحًا على الأرض، فيما بعضهم الآخر تمسّك بأعمدة من الحديد والخشب، وعيونهم تومض على ضوء شعلة حمراء منبعثة من القنديل.

- أيها الجندي! أقسم أني لست من أهل الكوفة. أنا رجل مسكين كنت عابر سبيل، فوقعت في قبضة الجلادين، ألا يوجد أحد يوصل صرختي إلى الأمير؟

توجه الحارس إلى الرجل الكهل المتكلم، ووكزه بالرمح في أصابع يديه النحيلة، وصاح به قائلًا: «اخرس أيها الخبيث المتمرد!».

ضج الرجل من شدة الألم، وراح يتأوه. المسكين! لا ذنب له. لم يكن مسلمًا أصلًا. إنه رجل مسيحي قدم من أحد الأديرة إلى الكوفة لشراء بعض الحاجات للرهبان، فاعتقل في المدينة من غير ذنب اقترفه؛ لكن أحدًا لم يكترث لكلامه.

مرّ ميثم من أمامه برفقة الحارس؛ لكن الرجل المسيحي كان ينظر إليه، وكأن بسمة ارتسمت على شفتيه. أراد أن يصرخ، فزجره الحارس، وصاح بالجميع أن يبتعدوا ويذهبوا إلى زاوية السجن المظلمة.

كان الدهليز طويلًا. صعدوا درجات عدة حتى وصلوا إلى الباب الكبير. عندما فتح الباب، سطع نور الشمس المحرقة داخل الدهليز، فأغمض ميثم عينيه. كان نور الشمس شديدًا

إلى درجة لم يعد ميثم يرى أمامه للحظات. حان اليوم الموعود.

لقد دنت ساعة بكائك.

رجع ميثم باتجاه الجندي ونظر إليه، فلم يحتمل الجندي نظرات ميثم الهادئة.

- أي يوم جميل هذا من أجل اللقاء!.

- لكن الأمير لن يسر لرؤيتك كثيرًا، فأنت..

قطع الجندي كلامه ولم يكمل حديثه، ثم تقدم ودفع ميثمًا إلى الأمام. وجاء جندي آخر وقيد يديه بحبل من ليف النخيل.

- وهل من داع إلى حبل؟

- إنه القانون.

- ليت القانون يسمح بأن أطير بيدين مفتوحتين.

- إلى أين؟ إلى قعر جنهم؟

- لم أقصد الجنة؛ بل أن أحلق مع الريح بين الأرض والسماء.

- أرى أنك صرت شاعرًا أيها العجمي المجنون!

- ألا ترى أنه يوم جميل من أجل الطيران؟

- قلنا إنّ السجن قد يرد إليك عقلك؛ لكن يظهر أن الجنون يسري في شرايينك. على كل حال لا تقلق، فأنا أعتقد أن الأمير سيعفو عنك.

تبسم ميثم ونظر إلى الشمس. بدت حولها هالة أحاطت بها كالطوق. لعلّها كانت علامة المطر، أو لعل عيني ميثم قد فقدتا

عادتهما على رؤية الضوء، وما تريانه ليس سوى غبار يغطي قرص الشمس.

اقترب حارس آخر. نظر إلى ميثم، وقال له: «تحرك. إن زمن الأعاجم قد ولّى». فعرفه ميثم. لكن وجه الحارس لم يكن يرى من كثافة شعره الذي يشبه وبر الإبل، فيما تدلت من فتحة أنفه شعرات عدة ملتوية، أشبه ما تكون بجذور النبات اليابس. كان الحارس يتمنطق خنجرًا جميل الغمد مزخرفًا.

- إنه خنجر مبارك!

- ما أجمل إغماده في خاصرة مجنون كاذب.

- لا تتعجل. الأمر ليس ببعيد.

قهقه الجندي، وقال: «لكن الأعاجم لا يقتلون بخنجر». ثم شدّ حبل الليف دفعة واحدة، فتعثر ميثم، إذ ضعفت عظام ساقيه، ولم يعد فيها تلك القوة؛ لكنه لم يقع على الأرض، انحنى قليلًا، ثم نهض لتوّه.

- ما ظنّك؟ بمَ تفكّر؟ نحن نقودك إلى الأمير، أو...

- بل تأخذني إلى رفيقتي.

ضحك الجندي مرة أخرى.

- كم أصبحتَ بليغًا وطيبًا أيها العلج!

التفت الجندي الآخر إلى صاحبه وسأله: «منذ متى أصبح ابن زياد صديقًا للأعاجم يا خولي؟»

- لعله رأى ذلك في منامه.

- المسكين! لقد أمضى مدة في السجن. من أين له أن يعلم ما الذي يحدث في الخارج؟

- لكن هذا التمار متنبئٌ جيد، ومن المؤكد أنه يعلم ما يدور في رأسك.

- إذًا احترس على خنجرك يا خولي.

- هذا الخنجر ملك لهم. إنه غنيمة من خزانة المدائن.

- لا تقل إن هذه النقوش والزخارف الفارسية قد ذكرته ببلاده الأم.

- لقد جذب هذا الخنجر نظره يا خولي، أرأيت أن أول كلامه كان عن خنجرك؟

- أنا حاضر أن أبيعه لهذا العجمي.

- أتقول الصدق؟

- طبعًا. لكن بثمن روحه.

ضحك الجندي باستهزاء، وشد حبل الليف. ثم التفوا من خلف خرابة، ودخلوا في زقاق يتصل بمفترق طريقين. عند منعطف الطريق، كانت ثلاث دكاكين قد فتحت مؤخرًا. سمع ميثم صوت الرجال وهم يتحدثون أمام دكاكينهم.

- أليس هذا ميثم؟

- بلى، فملابسه تقول إنه هو.

- يقولون إنه قطع عهدًا أن يتخذ لنفسه لباسًا بسيطًا، كما كان يفعل الخليفة السابق.

- هل تقصد أن عليًا كان يتخذ لباسًا خشنًا وبسيطًا؟

تأوه ميثم بحرقة. كان يسمع حديث الرجال.

- يقولون إنّ حذاءه كان مرقعًا.

نظر ميثم إلى حذائه المصنوع من جلد الإبل، كان بحالة يرثى لها. عجبًا للناس لأي شيء يهتمون. ليته كان يستطع أن يحدث الناس عن علي. ثم انعطفوا نحو الزقاق التالي الذي ينتهي إلى دار الإمارة.

- من المؤكد أن الأمير قد هيأ شرابًا طيبًا يا خولي!

- لكن موعدنا في مكان آخر.

أرخى خولي حبل الليف، ورجع إلى ميثم غضبانَ، وقال له: «أوتملي على الأمير ما يفعله أيضًا؟» ثم ضربه على ظهره.

لم يتقدموا خطوات عدة حتى وصل فارس.

- لا تأخذوا هذا العجمي إلى الأمير.

- هل تعني أن نعيد هذا العلج إلى السجن بعد كل هذا الطريق؟

- لا. إن ابن حريث ينتظركم أمام داره.

رجع خولي إلى صديقه الذي كان يلعق شعر لحيته الطويلة. بدا الجندي قلقًا إلى حدٍّ ما. عندما ذهب الفارس، التفت خولي إلى ميثم، قائلًا: «لا تقل إنك توقعت هذا أيضًا؛ بأن الأمير لم يرد أن نأخذك إلى دار الإمارة!».

تبسم ميثم فقط، ولم يجب.

- آه من ضحكاتك هذه، لقد حيرت الجميع.

وضع خولي يده على مقبض خنجره المزخرف بالنقوش، وقال: «ما زلت تنظر إلى خنجري؟» ثم دفعه برأس حربته إلى الأمام، وأمره أن ينعطف خلف جدار المسجد. تقدموا من الجهة الجنوبية لجدار دار الإمارة، واقتربوا من ميدان الكناسة الذي كان قريبًا من السجن. لقد ساروا كل تلك المسافة بلا فائدة. لعل ابن حريث كان يريد أن يعيده إلى السجن مرة أخرى. لكن ما إن عبروا منعطف الزقاق حتى سمعوا صوت صهيل حصان وهو يقترب. إنه صوت حصان قائد الشرطة. بدا ابن حريث، وهو يعتلي صهوة جواده الأدهم، أضخمَ وأقوى مما كان عليه وهو مترجل على قدميه. اقترب الرجل حتى وصل إلى ميثم، وقال له: «الآن فهمت سر علاقتك بشجرة النخيل التي أمام داري. وأنا الأحمق، عندما كنتَ تقول لي أريد أن أصبح جارك، كنتُ أظن أنك تريد شراء بيت ابن مسعود، بعد أن ترك داره ورجع إلى المدينة، أو لعلّ تجارتك قد درّت عليك دنانير كثيرة، فمددت عين الطمع إلى دار ابن حكيم الفارهة، تريد شراءها». ثم نزل عن جواده، وحل الوثاق من يدي ميثم، وقال: «انظر أي بلاء أنزلته بهذه الشجرة المسكينة. لقد استحالت الأرض تحتها إلى حفرة، لكثرة ما كسحت أطرافها».

- هل يمكن أن تعطيني قربة ماء؟

كان خولي يستمع إلى حديث ميثم وابن حريث بتعجب.

- ليست بحاجة إلى الماء، فعن قريب سوف ترتوي.

هز ميثم رأسه، بأن ذلك سيحصل. ثم نظر إلى النخلة وقال

بصوت هادئ: «كانت صديقة جيدة؟»

- يعني الآن ليست كذلك؟

- أنا لستُ صديقًا وفيًا.

ثم تابع قائلًا:

- أريد ماء كي أتوضأ وأصلي ركعتين مرة أخرى تحت ظل صديقتي.

- صلاة، صلاة، صلاة، أيها الرجل الوخيم! هذه الشجرة ليست بحاجة إلى صلاتك؛ أيها المزعج.

عندما شاهد ابن حريث وشوشات الناس وهمساتهم، رفع صدره، وقال: «لا ضير في ذلك، صلّ ما شئت، فالنهار طويل ويوجد متسع من الوقت حتى الغروب». ثم التفت نحو داره وصاح:

- ميمونة! هاتي قربة الماء.

فتحت جارية سوداء باب الدار، وأطلت برأسها، فلمعت عيناها البيضاوان من خلال الباب. أقفلت الجارية الباب، وغابت للحظة، ثم عادت وقربة الماء في يدها، وناولتها سيدها. أخذ ابن حريث القربة، حل رباطها وقال: «صحيح أنك كنت تخيفني أثناء الليل؛ لكنك لم تكن رجلًا سيئًا إلى حد كبير. أعتقد أن المشكلة بيننا كانت هذه الشجرة، والآن بدأت أدرك سرّها رويدًا رويدًا».

أخذ ميثم قربة الماء. توضأ وراح يقلب بصره في الأطراف.

لقد اجتمع حوله خلق كثير؛ تجار الكوفة وآخرون لم يعرفهم. رأى ولده صالحًا أيضًا في الحاضرين، وقد أصبح رجلًا. كانت لحيته الناعمة تدثر خديه. وقف ميثم للصلاة من دون أن يكلم أحدًا. بدا في لباسه الخشن البسيط المتدلّي إلى ركبتيه أشبه بزاهد متعبد منه إلى تاجر.

حين أتم صلاته، قال: «أيمكنني التحدث إلى ولدي؟».

- قل ما شئت بسرعة؛ لكن بصوت مرتفع.

- هذه أسرار عائلية.

- إذا كان الأمر لا يتعلق بالأمير، فليس من مشكلة.

أشار ميثم إلى ولده، فتقدم صالح وراح يشق الصفوف، وعيناه تلمعان بالدموع. اقترب بهدوء. بدا بلباسه الأبيض الطويل مديد القامة أكثر من ذي قبل. أمسك ميثم يدي ولده الناعمتين، فرمى صالح بنفسه على صدر أبيه وعانقه، محاولًا أن يمسك نفسه عن البكاء، لكنه لم يقدر على ذلك، فانفجرت عيناه بالدموع.

- الرجل لا يبكي يا ولدي! فهذه الطريق سيعبرها الجميع عاجلًا أم آجلًا. اسمعني جيدًا يا بنيّ.

خفض ميثم صوته وقال: «احتفظ جيدًا بذلك الكتاب الذي استودعتك إياه، فإن فيه كلام مولانا أمير المؤمنين. أوصيك بأن تحفظه أكثر مما تحفظ روحك، واستودعه عند أهله». ثم مكث قليلًا، وربت على كتف ولده، ونظر في عينيه وقال: «عزيزي

صالح! إني استودعت أمك وأخويك عند الله أولًا ثم عندك. إن عمران ما زال صغيرًا، وهو بحاجة أكثر إلى المحبة والحنان، فكن له أبًا وأخًا. أما شعيب فيمكنه أن يكون ساعديك، فهو فتًى فطن وقوي، ويستطيع أن يجد طريقه، لكنه بحاجة إلى رعاية». ثم أمسك بذراعَي صالح وقال: «تذكر دائمًا أمك العجوز». بعد ذلك أراد أن يرجع، لكن همهمات الناس وأحاديثهم بدأت تعلو:

- هذا الرجل الفارسي مجنون حتى يزج بنفسه بين خلافات العرب.

- إنه رجل طيب، لكن حاله تبدّلت مرة واحدة بعد موت الخليفة.

- إنه يحب عليًا حبًا جمًا.

- لكني سمعت أن عليًا كان يحبه أيضًا.

- اسكتوا جميعًا ولا تتكلموا.

حين صاح ابن حريث سكتت الأصوات، وهدأ الناس، فتوجه ميثم إلى شجرة النخيل، وبدأ يمسح بيده على جذعها.

قال ابن حريث: «لعلك تعرف جيدًا أن أمر الأمير كان مباغتًا، لذلك، لم يكن من فرصة لنهيئ لك مشنقة أفضل من هذه النخلة، لأجل ذلك فكرت بأن لا حل سوى أن أجلبك إلى قرب صديقتك». ثم طلب من الجنود أن يعلقوا الحبل من أعلى شجرة النخيل، ويرسلوه إلى الأسفل. نظر ميثم إلى النخلة بلطف وقال: «لم تكن صديقتي جارة سوء لك. هل كانت كذلك؟».

- دع عنك هذه الخزعبلات.

ما إن ارتفع صوت الطبل، حتى هاج الناس واضطربوا. تقدم ابن حريث وارتقى مصطبة أمام داره. كان الهواء حارًّا، والدرع الذي يرتديه يثقل جسده. توكأ على سيفه، وراح يكلم الناس بتكبر وغرور. طلب منهم أن يهدؤوا، ثم بدأ يقرأ بغضب.

- هذا حكم الأمير عبيد الله بن زياد لتأديب هذا الرجل العجمي المتمرد، الذي أضرم في السوق نار الفتنة والهيجان، وراح يجري على لسانه أحاديث العبث والجنون.

كان يفتح الطومار[[13]](#footnote-13) الذي بين يديه ويقرأ.

- أما بعد، فإن سالمًا عبد قبيلة بني أسد المعروف بميثم التمار، سوف يُعلّق على حبل المشنقة بجرم إهانة الخليفة، وخيانة الأمير، والتحدث بالترهات في الأسواق، وسوف تُقطع يداه ورجلاه، ليكون عبرة لغيره من المتمردين والمخالفين. لقد صدر هذا الحكم بحق هذا الرجل العجمي لأنه كاذب، وقد فُضح أمره، وظهر كذبه الذي كان ينسبه إلى علي. فهو يعتقد بأن لسانه سوف يقطع، ويلجم فمه كما يلجم الحصان، ويكون قبره في وسط الماء. وكان يعتقد أنه سيكون يومًا بين الأرض والسماء. اليوم سوف يعلق على جذع هذه النخلة اليابسة، ليعلم الجميع ما الذي كان يعتقده الخليفة السابق، وأنّ أصحابه ليسوا سوى حفنة من الكذابين. كان من الممكن أن يعاقب هذا الخبيث بعقوبة أشد وأدهى؛ لكن بما أن أمره قد افتضح، وبان كذبه

للعلن، لذلك يُكتفى بهذا.

ما إن أنهى ابن حريث كلامه، حتى ارتفع صياح الناس. كانت السيوف تلمع تحت أشعة الشمس. مد ميثم يده ومسح جذع النخلة لآخر مرة. أما خولي الذي كان خائفًا من أن يسلبه ميثم خنجره، فتراجع خطوة إلى الخلف، ثم دفع بميثم إلى الحفرة التي تحت شجرة النخيل.

- ذلك المسكين الأسير بين أيديكم، لماذا...

- صه! من كان المتحدث؟

خاف الرجل الأسود الذي كان يرتدي بُرجدًا[[14]](#footnote-14) أحمر، وتراجع إلى الخلف واختبأ خلف عدد من الرجال.

تقدم الجنود وسط ضجيج الناس وصيحاتهم، ثم أقدموا على قطع يدَي ميثم ورجليه، وصلبوه على جذع النخلة، بأمر ابن حريث، ورفعوه عاليًا حتى يراه الناس.

كان ميثم يرى الميدان بأكمله من أعلى الشجرة. لقد فاض الميدان بالناس الذين كانوا يفدون من كل حدب وصوب، فكان عددهم يزداد كل لحظة. لقد عرف الكثيرين منهم. حتى أفراد قبيلة بني أسد الذين عاش بينهم عمرًا قد حضروا أيضًا. كان ميثم يقلب بصره بحثًا عن ماجدة. لم يكن يراها بين الناس. شخص ببصره وراح ينظر يمينًا وشمالًا، فأبصر امرأة حانية الظهر تقف في الجهة الأخرى من الميدان، وقد أسندت يديها

إلى الجدار. لم يكن يراها جيدًا؛ لكن إحساسه كان يقول إنها ماجدة. لقد ظنّ ذلك.

- أرأيتِ، لقد عجّلت قبلكِ إلى لقاء سيدي، مع أنكِ بلغتِ من العمر قريب مئة عام.

في هذه اللحظات، شاهد رجلًا يقترب من ماجدة، ويهمس لها بحديث. فجأة رآها سقطت على الأرض، ثم تحلّق حولها عدد من الناس. لكن أكثر الحاضرين من أهل الكوفة كانوا يأتون لرؤية ميثم. تبسم ميثم قائلًا: «لعلنا سنرحل سويًا من هذا العالم».

صاح ابن حريث ودوى صوته في الميدان:

- هذا جزاء كل متمرد وموالٍ لعلي يبعث بالرسائل إلى الحسين.

كانت الدماء تنبعث من يدي ميثم ورجليه، وتتجمع في الحفرة التي كانت تحت الشجرة، بينما أنفاسه تضطرب في صدره بشدة. كان يلفظها بصعوبة. استجمع ما بقي في جسده من رمق حياة، وفتح شفتيه، وقال: «أيها الناس! من أراد أن يسمع حديثي فليقترب. حديث لم تسمعوه من قبل. اسمعوا. لقد كنت عبدًا لا اسم لي، حتى جاء علي وأعاد إليّ اسمي، وأحياني من جديد، فوجدت ضالتي. يا رجال الكوفة وشبابها! إن كباركم لا زالوا يذكرون يوم جاء ذاك الرجل ودخل الكوفة راكبًا على بغلته، بلباسه الخشن البسيط، وفي يده جراب فيه بعض أقراص من الخبز اليابس. حينها دعانا إلى الزهد والورع وتقوى الله، وقال: «أتيتكم بجلبابي وثوبي هذا فإن خرجت بغيرها فأنا

خائن». ولقد مكث بيننا أربع سنوات وكان ينظر إلى الجميع على أنهم عباد الله، لا فرق بين عربي وأعجمي، ولا أسود وأبيض. ثم أعطانا جميعًا من بيت المال بالعدل والسوية. فإن لم يقولوا لكم ذلك فاسمعوا آخر كلماتي. لقد قال عن دار الإمارة إنها دار الخبال، ولم يرض النزول فيها. لقد أحيانا علي وأحيا نفوسنا. أيها العبيد والسود! يا من جئتم تفتحون أبصاركم للنظر إلى عبد مصلوب على جذع شجرة يابسة. إن عليًا لم يكن يرى فرقًا بينكم وبين أولئك العرب أصحاب البطون؛ بل كان يرى أن أقربكم عند الله أتقاكم، وأفضلكم أورعكم وأقربكم إلى الله. لقد جاء هؤلاء بالكذب والنفاق، وجلسوا على المنبر بغير حق، ثم يشتمون ذلك الرجل العظيم. أيها الناس! اقتربوا حتى تسمعوا. اسمعوا كيف تسلط معاوية على رقاب الناس بغير حق. تعالوا لأخبركم عن الجرائم التي سيرتكبها والجنايات التي سيفعلها ابنه يزيد، وهذا الأمير الذي نصّب عليكم حاكمًا، هو ابن من، وكيف يعيش!».

كان حديث ميثم يقلق ابن حريث، فلم يدر ماذا يفعل. لقد أمره عبيد الله بن زياد بقطع يديه ورجليه فقط، لذلك أسرع إلى دار الإمارة.

كانت أنفاس ميثم تخفق في صدره بشدة، وتصعد من حلقه بصعوبة، وكلامه يخرج من فمه متقطعًا، وكان يقول في نفسه: «هل يستحق هذا الرجل العظيم الشتم واللعن؟ ألم يكن يريد لعباد الله الحق والعدل؟».

علت همهمات الرجال وارتفع صياحهم. كان المتأخرون منهم يندفعون إلى الأمام بشدة، يريدون أن يتقدموا شوقًا لسماع حديث ميثم. لم يكن أحد ليتجاسر على الحديث بهذه الجرأة والشجاعة طوال مدة حكم ابن زياد في الكوفة.

- أفٍ لكم يا أهل الكوفة! حين وجب عليكم الخروج من بيوتكم، اختبأتم في أحضان نسائكم. وكسرتم شفرات سيوفكم حين وجب عليكم سلّها من أغمدتها. الآن وقد ابتليتم بزمن ابن أمية هذا، يتسلّط عليكم ويجركم إلى السجون جرًا، أو يقودكم إلى الموت تحت عذابات السياط الظالمة. ألا تسمعون الصراخ والضجيج في جوف الليالي المظلمة، أو أنكم ذهبتم في سبات شتاء عميق كالدببة؟ ألا تعلمون أن ابن رسول الله في طريقه إلى الكوفة؟ لماذا أنتم واقفون؟ لماذا جلستم في منازلكم لا تحركون ساكنًا؟ هل تنتظرون فاجعة أخرى؟

عاد ابن حريث يهرول ويلهث، صاح من بعيد: «ماذا تنتظرون؟ اقطعوا لسانه من الحلقوم».

- أقسم بالله إنها البشارة التي بشرني بها سيدي ومولاي أمير المؤمنين، وكذبها هؤلاء.

- ألجموه كما يلجم الحصان حتى لا يتفوه بالترهات.

حاول جندي أن يخرج لسان ميثم فلم يستطع. كان ميثم يتحدث إلى الناس بما تبقى لديه من طاقة على الكلام. التفت ابن حريث وصاح بخولي: «لماذا تقف ساكتًا؟ ماذا تنتظر؟». سل خولي خنجره من غمده، وطعن ميثمًا في خاصرته قائلًا: «لأجل

هذا لبست مثل ذاك المخادع ثوبًا خشنًا وقصيرًا لا قيمة له».

انبعث الدم من جوانب الخنجر المغموس في جسد ميثم، وراح يتدفق على درع خولي. تأوه ميثم من شدة الألم، وأغمض عينيه، فبادر جندي إلى قطع لسانه، ورماه وسط الدماء تحت شجرة النخيل. بعد ذلك ألجموه كما يلجم الحصان، وشدوا اللجام على فمه.

فتح ميثم عينيه وهما في رمقهما الأخير، ورفع رأسه نحو ابن حريث: «أنت لم تكن جارًا طيبًا». استدار عمرو بن حريث وصاح بالناس غاضبًا، وطلب منهم أن يتفرقوا. ثم قال: «سيبقى هذا الخبيث معلقًا، كما حكم الأمير، حتى يصير جسده يابسًا مثل جذع هذه النخلة، وليس كما ادعى أن بدنه سوف يغرق وسط بحر من الماء. كذلك يمنع على كل شخص أن يقترب من هذه النخلة». بعد ذلك طلب من الجنود أن يبعدوا الناس من الميدان، فلا يبقى منهم أحد. لكن جنديًا حين رآه يحاول أن يقول شيئًا بفمه الملجوم، رجع إليه وطعنه بحربة في خاصرته.

# **18**

جمع صالح أغصان النخيل وأوراقها اليابسة، وكومها فوق بعضها بعضًا، ثم التفت إلى صديق أبيه قائلًا: «أليس الأمر خطيرًا؟».

كان الرجل ملثمًا، يحدق في بحر من العتمة، ويسمع صوت وقع أقدام الحراس وهم يدورون حول شجرة النخيل، وصوت سعالهم يسمع بين الحين والآخر.

- ليس لدينا خيار آخر، يجب أن نصبر حتى ينقضي نصف الليل، فتأخذهم الغفوة في الهواء الرطب والحار قريب السحر.

وقف الرجل والتفت إلى رفاقه الآخرين - كانوا ينتظرون قرب الجدار، يجلسون القرفصاء وفي يد كل واحد منهم خُرج تأوه ثم قال: «كان أبو صالح صديقًا طيبًا للجميع، خصوصًا نحن تجار التمور، ولا يليق أن تهان جنازته على جذع النخلة أكثر من ذلك».

- ثلاثة أيام مضت وجسد ميثم معلق على جذع النخلة، ليأتي الناس وينظروا إليه. لقد اسودت ثيابه، وغارت وجنتاه في وجهه. كان يبدو أكثر طولًا مع أن رجليه قطعتا من الركبتين.

- ننزله! لكن إلى أين نأخذه؟ فالمدينة كلها تحت عيون

حراس ابن زياد وجنوده.

- مهمتنا الأولى أن نعتقه من هذه الشجرة، وننزله إلى الأرض في عتمة الليل.

- لقد قال بنفسه إن مكانه وسط الماء.

ارتفع صوت صياح الديك، وهب نسيم عليل حمل معه رائحة الرطوبة والماء. لم يكن أحد يعرف ماذا يجب أن يفعلوا؛ فهل يتركونه في الفرات فيحمله الماء معه، أو يوارونه في التراب، ويخفون جسده؟ كانت هذه الأفكار تشغل بال الجميع.

- جهزوا خناجركم.

- لا ينبغي لأحد أن يتضرّر، حتى يخرج الجميع سالمين، فلا نقع في أي خطر؛ لأن ابن زياد يبحث عن أدنى ذريعة، خصوصًا في هذه الأوضاع، حيث أصبح مولانا الحسين قريبًا من الكوفة. حاولوا أن تُشغلوا الجنود المتعبين بأي وسيلة.

- نحن نجذبهم في العتمة إلى هذا الاتجاه، وتذهب أنت وصالح وتنزلان الجثمان إلى الأرض.

- مع ذلك فأنا قلق. ماذا سنفعل بعد ذلك؟

- توكل على الله يا جنادة! إذا وُفّقنا في إبعاد جثمانه عن دار ابن حريث، نأخذه إلى طرف المدينة خارج سوق القصابين، وهناك نجد بقعة من أرض الله، بحيث لا يستطيع أحد من الناس معرفة مكانه.

- أليس من الأفضل أن نتركه في ماء الفرات كما قال؟

- الآن ليس وقت هذا الكلام. خذوا القش والحطب واذهبوا لإشعال النار. وكما قلنا، إذا وقفتم في تلك الناحية من الميدان، فإن أحدًا لن يرانا في ظل ألسنة النار.

تقدم رجل منهم يلبس ثيابًا لم تكن مألوفة عند أهل الكوفة، وحمل حزمة من الحطب، يرافقه رجل آخر يضع خرجًا على كتفه، ثم انطلقا مع رفاقهما إلى جهة الشمال عند نهاية الميدان. لم تمض لحظات قليلة حتى ارتفعت ألسنة النار، فعلا صياح في الظلام.

- من هناك؟

لم يجب أحد. كان صوت وقع أقدام الحراس يعلو أكثر فأكثر، وهم يقتربون من النار. عندما لمع ضوء النار على دروعهم، تكلم سليمان قائلًا:

- هذا نحن يا أخي؛ جماعة من بدو الصحراء. قدمنا إلى المدينة لشراء بعض الحاجات. لم يكن لدينا مأوى أو منزل في هذا الليل، فكنا نستريح قليلًا؛ لكن البرد عضنا فأشعلنا نارًا. أنتم ماذا تفعلون هنا؟

نظر الجندي إلى الرجال بارتياب وهم يرتدون ألبسة بنية اللون. كانوا يلبسون ثياب سكان الأديرة في أطراف الكوفة، فبدت هيئتهم توحي بأنهم ليسوا من أهل الكوفة.

- من أين قدمتم؟

- من خلف النهر الكبير! تعالوا استأنسوا بدفء النار.

كان ظل الجندي ينعكس على الجدار. تقدم قليلًا. عندما

سمع إطراء الرجل له، ودعوته إياه إلى شرب كأس قدمها إليه، نظر في العتمة، وصاح: «يا أبا بكر! تعال. فنحن لسنا وحدنا هذه الليلة».

خرج الجندي الآخر من قلب العتمة. بدا ضخم الجثة. تثاءب، وقال: «لست أدري لماذا أصبحت الليالي طويلة إلى هذا الحد».

سوف يحل الفجر قريبًا يا أخي! تعال. استرح قليلًا قرب النار، واشرب بعضًا من هذا اللبن.

نظر الجندي إلى صديقه الذي كان يجلس القرفصاء في الجهة الأخرى من النار، وهو منشغل بتناول الطعام، بينما ظلال ألسنة النار تتلوى على وجهه.

- تعال إلى هنا؛ إلى جانب صديقك. لكن قل لي ما الخبر في الكوفة حتى تكونان في منتصف الليل...

- لا شيء. نحن نحرس ميتًا حتى لا يصيب أذاه...

- ومتى رأيت ميتًا يصيب الناس بأذاه؟

- إذًا لماذا نخاف من الموتى؟

سكت الجندي، وتناول قبضة من التمر، ثم رفع رأسه.

وما يدريني!

- لكن لماذا يجب أن تحرسوا ميتًا؟

- لأن الأمير يريد أن يكذب أقواله.

- وماذا قال حتى يريد الأمير تكذيبه؟ فالميت لا يتكلم. إن الرسول قد رحل من الدنيا منذ سنوات، ولا أحد يمكنه أن يخبر عن الغيب إلا هو وبعض المقربين.

- لكن أحاديث هذا الفارسي الخبيث قد حيرت الجميع.

- أوَكان رسولًا؟

- لا. كان مقربًا من الخليفة السابق. إنه عجمي يتكلم بكلام عجيب، لم يسمع به أحد من قبل حتى الآن.

- أقسم بالله أن أكثر حديثه كان صحيحًا.

- ولذلك أنتم تحرسونه؟

تناول الجندي البدين كأس اللبن وشربه، ثم راح يحدق في العتمة.

- من هناك؟ اسمع خشخشة.

- إن قلة النوم جعلتك تتوهم أشياء يا أبا بكر. من يجرؤ في جوف هذا الليل على الاقتراب من دار رئيس شرطة الكوفة؟

في الجهة الأخرى من النار، جلس بائع تمر على ركبتيه، وهو يحدق في العتمة. فجأة لمح صالحًا وهو يركض باتجاه النخلة. كان الرجل يجلس على مسافة من النار، بحيث يمكنه سماع

وقع أقدام رفيقيه الآخرين، وهما يركضان خلف صالح باتجاه شجرة النخيل.

- أظنه حيوانًا؛ قطة، أو شيئًا آخر.

- أجل. فلا أحد يجرؤ في هذه الليالي على أن يطأ الزقاق، سوى الكلاب والحيوانات الشاردة. وأنتم أيضًا، عليكم أن تجدوا مكانًا آخر قبل حلول الصباح لترقدوا فيه. فلو علم الأمير بوجودكم هنا لفعل بكم كما فعل أبوه من قبل.

كان الرجال قد جلسوا بصورة بدت معها ظهور الجنود مقابل الميدان. بعد لحظات، قام رجل وذهب متذرعًا بجلب الحطب، ابتعد قليلًا وراح يراقب صالحًا ورفيقه، وهما يجهدان في إنزال جثمان ميثم من الأعلى. بعد قليل، عاد الرجل ومعه حزمة من الخطب، ثم ألقاها فوق النار المشتعلة، وتوجه إلى الجندي يسأله بهدف إشغاله.

- لكن ماذا فعل والد الأمير حتى...

لم يدع الجندي البدين الرجل يكمل حديثه فقال: «لقد أخبر الأمير أن والده يوم كان حاكمًا للبصرة، جلبوا إليه رجلًا قرويًا، كانوا قد أمسكوا به، ولم يكن المسكين يعلم أن الأمير قد أصدر أمرًا يمنع فيه الدخول إلى المدينة ليلًا. ولما أدخلوه على الأمير، حكم عليه بالموت شنقًا».

- وا ويلاه! أحقًا تقول؟

علت قهقهة الجندي.

- وهل خفت؟

التفت الرجل الملثم إلى رفاقه قائلًا: «أقسمت عليكم بالله أن تفكروا في حياتكم وأرواحكم؛ فأنا أرتعب من شدة الخوف، لا سيما مع وجود هذا الميت المعلق على المشنقة في هذا الميدان».

- أنا أخاف من الموتى فكيف إذا وصل الأمر إلى...

شعر الجنديان بالقوة والعظمة، فتقدما قليلًا إلى الأمام. قال الجندي الذي يبدو نحيل الجسم وطويل القامة: «لكن بالطبع يمكنكم أن تنقذوا أنفسكم بقليل من الذهب».

- تالله! إنا لمساكين.

- على كل حال، إذا أردتم الاحتفاظ بأرواحكم فعليكم فعل شيء ما. أليس كذلك يا أبا بكر؟

- ماذا تقول يا رجل؟ يكفي أنهم أخرجونا من الوحدة في جوف هذا الليل. ثم إن الرجل العربي لا يعامل ضيفه بهذا الشكل. نحن نطيع الأوامر ليس إلا. أنا أكاد أموت من النعاس.

ثم راح الجندي يتثاءب.

فجأة، أحسّ الرجل الذي كان يراقب الميدان، أن صالحًا ورفيقيه يعبران بجانب جدار منزل ابن حكيم ويبتعدان. قال متوجهًا بالسؤال إلى الجنديين:

- أساسًا أنتما لماذا تحرسان رجلًا ميتًا؟

- لأجل شيء لا معنى له. أليس كذلك يا قاسم؟

- نعم. بسبب الضغينة التي يكنونها له.

- وأي ضغينة؟

- لو كنت من أهل الكوفة لفهمت كلامي. إن الأمير وابن حريث يظنانه كاذبًا؛ لكن كلام هذا العجمي كان في النهاية صحيحًا وصادقًا. يقول سوف أُصلب وأعلق على جذع النخلة، فيقولون له سوف نقطع رأسك. هذا الأمر يغضب أي رجل كان.

- في النهاية قد قتل الرجل، فلماذا الحراسة؟

- لقد أخبر أن قبره سيكون في بحر من الماء. لكن الأمير أمر بأن نحرسه حتى يتعفن جسده ويتلاشى.

في هذه الأثناء، كان يُسمع صوت خفيف لوقع أقدام الرجال الذين يحملون جثمان ميثم. لكن الجندي البدين كان منشغلًا بالحديث عن ميثم، وأنه كان يغيظ الأمير.

- إذًا فهي مسألة هيبة.

تقدم بائع تمر آخر، كان حتى اللحظة ساكتًا. قرّب خرجه، وقال: «لقد شغلنا أنفسنا بالحديث عن أشياء لا تخصنا، ونسينا أن نشرب من هذا الشراب السائغ». ثم أخرج قربة وملأ الكؤوس، وقال: «هذا الشراب اللذيذ يصنع المعجزات في مثل هذا الليل الذي مال إلى الفجر».

- خصوصًا إذا كان بجانب النار جذع نخلة.

قطع الجندي البدين كلام الرجل، ومد يده من فوق النار، حتى يملأ الرجل كأسه. كانت اللحظات تمر ببطء، بينما النار تتراقص في أعين الجنديين، وألسنتها تتلوى يمينًا وشمالًا.

أما الرجال فكانوا يتناولون أطراف الحديث، ريثما يظهر أثر الشراب على الحارسين. لم يكن لديهم أي خبر عن صالح ورفيقيه. لقد مر وقت طويل منذ أن غادروا الميدان؛ لكن لم يكن لديهم الجرأة على فعل شيء.

- لماذا يبدو لهب النار هكذا؟

تثاءب الحارس الآخر، وقال: «أني أقع داخل النار».

لقد خدعتم...

لم يكمل الجندي البدين كلامه، حتى وقع بجانب النار وفقد وعيه. حاول صديقه أن يقاوم؛ لكنه ترنح وسقط في العتمة على الأرض بلا حراك.

- هيا أسرعوا. لا حاجة لأن تأخذوا معكم أي شيء.

كانوا أربعة رجال، اختفوا في عتمة حي بني أسد. عبروا من خلال شجرات النخيل، وتوجهوا إلى ناحية سوق القصابين. كان صوت بكاء صالح يسمع من الجهة الأخرى لشجر النخيل.

هذا ليس وقت البكاء يا ولدي! يجب أن نُخرج والدك من المدينة.

- إلى أين؟ عما قريب سيغلق الجنود أزقّة الكوفة كلّها.

ارتفع الصياح الثاني للديك، ثم بدأت أصوت الديكة تسمع من هنا وهناك. كان جسد ميثم القصير ملقى على حصير تحت شجرة نخيل، والرجال حائرين لا يدرون ماذا يفعلون به.

- ماذا نفعل الآن؟

- نفعل مثلما طلب، نأخذه ونتركه في الماء.

- ما هذا الكلام! يجب أن نواريه في التراب.

- الآن ليس وقت هذا الكلام. يجب أن نبتعد من هنا حد المستطاع.

أخذ الرجال بأطراف الحصير الذي ضم بين جوانبه جثمان ميثم النحيل والقصير، وساروا في العتمة. كان الظلام يعانق الليل، وهلال القمر الرفيع حادًّا كحرف الخنجر، ينبعث منه ضياء خافت. كانت النجوم فقط تلمع بفتور على قميص ميثم الذي يبس على جسده وتلطخ بالدماء.

ستة رجال حيارى، كانوا يعبرون بجانب الجدران، ويقفون للحظات حتى يرجع سابعهم الذي كان يتقدم عليهم مستطلعًا الطريق، ثم ينطلقون مجددًا.

- فلنحمله إلى مقبرة الكوفة....

- سيعرفون قبره من التراب الجديد.

- فلنأخذه إلى داره وندفنه هناك.

- هذه فكرة ليست سديدة على الإطلاق.

كان الرجال السبعة يقفون تارة ويتحركون تارة أخرى، وكل واحد منهم يقول شيئًا.

- اصبروا للحظة.

توقف الجميع على صوت سليمان:

- ألم يقل بنفسه إنه سيرقد بسلام في بحر من الماء؟

- كلا. لا يجب أن نرميه في الفرات، فهذا يعد إهانة...

- لم أقصد ذلك، بل قصدت أن هناك بركة ماء في حي قبيلة مراد.

- ماذا تعني؟

- يوجد في وسط البركة مرتفع قد ستر بالقصب والشوك والحشائش. أقسم بأن أحدًا لن يعلم بمكانه.

أسرع الرجال الخطى. كان سليمان يقصّ عليهم كيف كان يختبئ بين تلك الحشائش عندما كان صغيرًا، ولم يكن أحد ليعثر عليه. تقدم عدد من الرجال، وتفرقوا في الأطراف، وبقي صالح ومعه ثلاثة رجال ينتظرون إشارة سليمان. فجأة، دوى صوت وقوقة في العتمة. إنه سليمان يصدر الإشارة. تقدم صالح ورفاقه باتجاه البركة مبتعدين عن الجدار. كان ماء البركة باردًا، يغمر أقدامهم حتى الركب. ساروا في الماء، وسار معهم هلال القمر، فكان يظهر مرارًا على صفحات الماء مع كل خطوة

يخطوها الرجال؛ وكأن السماء قد سقطت في البركة. بجانب القمر كانت سحابة رمادية تزاحمه المكان؛ حيث بدا الهلال الرفيع يسبح في الماء تحت تلك السحابة.

عندما وصل صالح ورفاقه، كان سليمان ومن معه قد حفروا حفرة صغيرة. وضعوا جثمان ميثم على أجمة من العشب الجاف. أزالوا أعواد القصب ونحّوها جانبًا، ثم أخذوا خناجرهم وبدؤوا يحفرون الأرض. كانت الجذور متداخلة في باطن التراب الناعم والموحل، ما جعل اقتلاعها صعبًا.

اقترب وقت الفجر. ارتفع الصياح الثالث للديك. سبعة رجال كانوا يحفرون الأرض عميقًا، ويبعدون التراب جانبًا.

- أسرعوا، لقد اقترب موعد الأذان.

- أليس هذا كافيًا؟

- لا. فمن الممكن أن يأتي بعض الأولاد إلى هذه الناحية للعب، ويزيلون التراب.

- يجب أن لا يعلم أحد بالمكان.

وقف الرجل الذي كان في الحفرة معتدلًا، فلم يظهر سوى صدره. مسح صالح بيده على وجنتي أبيه بلطف ومحبة. كان ملازمًا لجسد والده. انحنى وقبل جبينه، ثم رفع رأسه ونظر إلى هلال القمر، حتى لا يرى أباه وهو يوارى في التراب.

- أعطوني ملابسكم أولًا.

أخذ سليمان ألبسة الرجال الملونة، ووضعها فوق الجثمان

وحوله، ثم أهال فوقها قليلًا من التراب الناعم، وقال: «ضعوا التراب الرطب فوقه».

بعد أن امتلأت الحفرة بالتراب، جعل سليمان يسوّي الأرض بكفيه، حتى أنهى عمله. ثم قال: «ناولني هذه الأجمة يا صالح».

أخذ سليمان أعواد القصب وأجمات الشوك والحشائش، وغرسها في التراب الرطب فوق القبر، وسوى أطرافها، ثم التفت إلى الرجال قائلًا: «لن يعلم أحد سوى الله».

- يجب الانتباه جيدًا، فغدًا ستعج الكوفة بالجنود والعيون.

- أقسموا أن لا تحدثوا أحدًا بسر هذه الليلة.

وضع الرجال أكفهم الملطخة بالطين فوق بعضها بعضًا، وأقسموا بحزم أن لا يطلعوا أحدًا على سرّهم. كانت دموع صالح تسيل على خديه. ارتفع صوت الأذان... سبعة رجال بين شاب وعجوز خرجوا من البركة بهدوء، ثم تفرقوا وسار كل واحد منهم في زقاق، وتحوّلوا جميعًا نحو مسجد الكوفة.

1. هو نهر كارون حاليًا. [↑](#footnote-ref-1)
2. جمع علج وهو حمار الوحش السمين. ويقال علج لكل شديد غليظ من الرجال (المنجد). [↑](#footnote-ref-2)
3. كيس يربط من الوسط وتوضع فيه النقود. [↑](#footnote-ref-3)
4. والي المدينة من قبل الخليفة عثمان (الوليد بن عقبة) وهو أخو عثمان لأمه. [↑](#footnote-ref-4)
5. أحد أحياء الكوفة. [↑](#footnote-ref-5)
6. (ثم التفت إلى الناس وقال لهم: أزيدكم!) [↑](#footnote-ref-6)
7. سكب الماء خلف المسافر عادة [قديمة] للتفاؤل ودفع الشر. [↑](#footnote-ref-7)
8. الوحشيّين البدينين. [↑](#footnote-ref-8)
9. معركة صفّين. [↑](#footnote-ref-9)
10. وجه القمر. [↑](#footnote-ref-10)
11. شديد الوطء واثق الخطى. [↑](#footnote-ref-11)
12. نوع من اللباس الخشن يصنع من القطن أو الخيش. [↑](#footnote-ref-12)
13. مقادير من الورق أو وثيقة مشدودة. [↑](#footnote-ref-13)
14. كساء مخطط غليظ. [↑](#footnote-ref-14)